اللمحة البدرية في الدولة النصرية

تأليف

وزيرها الأديب الأشهر

« لسان الدين بن الخطيب »

صححه ووضع فهارسه ناشره

محب الدين الخطيب

منشئ مجلة الزهراء وصحيفة الفتح

القاهرة

١٣٤٧

المطبعة السلفية - ومكتبتها

لصاحبيها: محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان

اللمحة البدرية
في
الدولة النصرية

تأليف

وزيرها الأديب الأشهر

﴿ لسان الدين بن الخطيب ﴾

صححه ووضع فهارسه ناشره

محب الدين الخطيب

منشئ مجلة الزهراء وصحيفة الفتح

القاهرة

١٣٤٧

المطبعة السلفية ومكتبتها

صاحباها: محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان

تأليف

وزيرها الأديب الأشهر

﴿ لسان الدين بن الخطيب ﴾

صححه ووضع فهارسه ناشره

محب الدين الخطيب

منشيء مجلة الزهراء وصحيفة الفتح

القاهرة

١٣٤٧

المطبعة السلفية - ومكتبتها

لصاحبيها : محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

هذا كتاب في تاريخ بني الاحمر آخرِ دُول العرب في الأندلس ، ألّفه عامَ ٧٦٣ ﻫ وزيرُهم الاديب الاشهر **لسان الدين بن الخطيب** ، وهو من أجود ما كتبه المسلمون في التاريخ : لتوخّي مؤلّفه الصدقَ فيما روَى ، وبُعدِ نظره في درك الحقائق ، ولطف إشارته الى ما يَحسُن بمثله ألاّ يُسرف في التصريح به

وقد ذهبتْ عادياتُ الدهر بنسخ هذا الكتاب فلم يبق منه ـ فيما أعلم ـ غير نسختين : احداهما (وهي أجودُهما) موجودة الآن في مكتبة الأسكوريال بالاندلس ، والثانية موجودة بالمغرب الاقصى . فأمّا الأندلسية فاطّلعنا على صورتها الشمسية ، وهي في ١٢٠ صفحة في كل صفحة ١٩ سطراً وليس فيها تاريخ كتابتها ، وهذه الصورة الشمسية محفوظة الآن في الخزانة التيمورية العامرة . وأما النسخة المراكشية فلم يشأ صاحبها أن يعرّفنا باسمه ، وصورتها الشمسية محفوظة في خزانتنا ، وهي في ١٥٢ صفحة في كل صفحة ١٥ سطراً ، وقد كتبها « أحمد بن محمد بن محمد ابن عليّ العربيّ الاندلسيّ الاصل الفاسيّ الدار والمنشأ العكيّ النسب » وقد أنهكت الأرضةُ ورقَ هذه النسخة وذهبتْ بمكان التاريخ في آخرها

وكنتُ عند الطبع أعارض بين النسختين ، ويساعدني في هذه المعارضة صديقي الاديبُ المغربيّ الضليع السيد محمد المكي الناصري ، وأعانني في تجريد الفهارس صديقي الفاضل اللبيب الاستاذ حسنين افندي مخلوف ، وكتب ترجمة المؤلف ابن اختي السيد محمد علي الطنطاوى . فشكراً لهم جميعاً

وقد بذلت جهدي في تصحيح الكتاب ، فأرجو الله أن يجعل هذا العمل من وسائل مرضاته

محب الدين الخطيب

ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب

٧١٣ – ٧٧٦ هـ

﴿ نسبه – وأصله ﴾

هو محمدُ بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن عليّ بن أحمد السَّلْمانيّ . وُلد بلَوْشة على عشرة فراسخ من غَرْناطة في ٢٥ رجب عام ٧١٣ ، وينسب بيته الى سَلْمان ، وهو حيٌّ من مُراد من عرب اليمن ، انتقل الى الشام ثم هاجر الى الأندلس فسكن قُرْطبة أولاً ثم طُلَيطلة ثم لَوْشة . . وأخيراً استقرّ في غَرناطة [1]

ولا نعلم بالضبط الوقت الذي هاجرتْ فيه هذه الاسرة من اليمن الى الشام ثم من الشام الى الأندلس ، لكن الظاهر أن الهجرتين كانتا تبعاً للموجتين الكبيرتين : الهجرة الى الشام في مدة حكم الأمويين أيام كانت دمشقُ حاضرةَ للعرب والاسلام ، وحيث كان فيها لليمنيين خاصة مقامٌ محمود ومنزلة كبرى عند ملوكها . والموجة الثانية الى الأندلس بعد أن فتحها العربُ وأشاعوا في البلاد حديثَ رغدها فأسرع الناسُ اليها من كل حدب وخاصة من الشام ، بدليل تسميتهم بعض بقاع الاندلس بأسماء البقاع الشامية [2] . وكل هذا ظن لا دليل عليه ، لكن ما لا ريب فيه أن بيت لسان الدين كان بيت شرف وعلم وسيادة ونفوذ ، وكان يعرف ببيت الوزير ، حتى نشأ سعيدٌ الجدُّ الاعلى لسان الدين وكان من أهل العلم والدين خطيباً بلَوشة وهو أول من استوطنها منهم ، وكان خطيباً بها ، فعرف هذا البيت منذ ذلك اليوم ببيت الخطيب

(١) كما جاء في نفح الطيب (٣ : ٣) نقلا عن ترجمة للسان الدين بقلمه في آخر الاحاطة

(٢) انظر هامش رسالة (اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب) ص ١١

وكان جده سعيد الأدنى على خلال حميدة من خط وتلاوة وفقه وحساب وأدب ، توفي عام ٦٨٣ . وأبوه عبد الله أول من انتقل الى غَرناطة وخدم ملوك بني الأحمر واستعمل على مخازن الطعام ، وكان من العلماء بالأدب والطب : قرأ على أبي الحسن البلوطي وأبي جعفر بن الوزير وغيرهما ، وأجازه طائفة من أهل المشرق ، وتوفي بطريف شهيداً عام ٧٤١

وكان لهذا النوع من النبوغ الوراثي تأثير كبير في انصراف لسان الدين الى العلم والدرس وتبريزه فيهما

﴿ صباه وتحصيله ﴾

كان لمحمد من محيطه المنزليّ والاجتماعيّ ، وما عرفناه من انصراف آبائه للعلم وعناية أهل زمانه به ، الى كثرة العلماء حوله وسهوله التحصيل ؛ أكبرُ عَون على بلوغه تلك المنزلة السامية التي نالها بعدُ

وكان أولَ من قرأ عليه القرآنَ أبو عبد الله بن عبد المولى العوّاد ، فأتقنه كتابةً وحفظاً وتجويداً . وقرأه أيضاً على أستاذ الجماعة أبي الحسن القيجاطي ، وأخذ عنه العربية ، وهو أول من انتفع به . وقرأ على الخطيب أبي القاسم ، ولازم قراءة العربية والفقه والتفسير على الامام أبي عبد الله المخار الالبيري شيخ النحويين لعهده . وقرأ على قاضي الجماعة أبي عبد الله بن بكر وتأدب بالرئيس أبي الحسن بن الجيّاب ، وهو سلفه في الوزارة وروى عن كثير من الأعيان ، وأخذ الطبَّ وصناعة التعديل عن الامام أبي زكريا بن يحيى بن هذَيل ولازمه وألَّف فيه في هذين العلمين

﴿ مصنفاته ﴾

انما يَعنينا من لسان الدين هنا لسانُ الدين المصنّف ، أما لسان الدين الكاتب والشاعر فندع البحث فيه الآن

خلّف لنا لسانُ الدين مؤلّفات جمّة ، وآثاراً قيّمة في التاريخ والأدب وعلوم الشرع والطب ، من أهمها :

الاحاطة في أخبار غَرْناطة
الاماطة عن وجه الاحاطة فيما أمكن من تاريخ غَرْناطة
اللمحة البدرية في الدولة النصرية
طرفة العصر في دولة بني نصر
رقم الحلل في نظم الدول
الكتيبة الكامنة في أدباء المائة الثامنة
اعلام الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام
بستان الدول (أتمّ منه ٣٠ سِفراً)
نفاضة الجراب في علالة الاغتراب
خطرة الصيف ، رحلة الشتاء والصيف
مفاضلة مالقة وسلا
معيار الأخبار
التاج المحلَّى في مُساجلة القِدْح المعلَّى
الاكليل الزاهر فيما فضل عند نظم (التاج) من الجواهر
ريحانة الكتّاب (عدة مجلدات)
السحر والشعر
جيش التوشيح
الصيّب والجهام (ديوان شعره)
النثر في غرض السلطانيات
عائد الصلة

النفاية بعد الكفاية

المختصر في الطريقة الفقهية (لا نظير له)

الألفية في أصول الفقه (وله أراجيز أخرى في العلوم)

روضة التعريف (في التصوّف)

اليوسفي (في علم الطبّ)

المسائل الطبية

عمل من طبّ لمن حبّ

﴿ حياته السياسية ﴾

« اتصاله بالسلطان »

لم يكد لسان الدين يكمل دَوْرَ الطلب حتى سطع نجمه متلألئاً في سماء الشعر والنثر ، وبلغ في المديح مبلغاً جعل أعناق الامراء تتطاول اليه ؛ لكنه لم يلتفت الى أحد منهم ، وعكف على مدح السلطان أبي الحجاج (سابع ملوك بني نصر المعروفين ببني الأحمر) حتى امتلأ حوضه ـ كما يقول ابن خَلدون ـ بنظمه ونثره مع انتقاء الجيّد منه . فذاعت في الدولة مدائحه ، وانتشرت في الآفاق رسائله . فرقّاه السلطان الى خدمته ، وأثبته في ديوان الكتابة ببابه مرءوساً بأستاذه أبي الحسن بن الجيّاب شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية ، وكاتب السلطان بغرناطة . . . واستقلّ ابن الجيّاب برياسة الكتابة من يومئذ الى أن هلك بالطاعون الجارف عام ٧٤٩

« وزارته الأولى »

خلا الجوُّ لمحمد بن الخطيب بموت أبي الحسن ، فولاّه السلطانُ رياسة الكتابة ببابه ، وثنّاها بالوزارة ولقّبه بها ؛ فاستقلّ بذلك ، وصدرت عنه غرائب من الترسل في مكاتبة جيرانهم من ملوك العدوة ، وقرّبه السلطان ، وبلغ به من

المخالطة الى حيث لم يبلغ بأحد من قبله ، حتى سفر عنه الى السلطان أبي عنان ملك بني مرين بالعدوة . . . فحلَّى في أغراض سفارته ، و بقي أثيراً عند السلطان حتى توفي سنة ٧٥٥ ، فتولَّى من بعده ابنه محمد ، فكان له ابنُ الخطيب كما كان لأبيه من حيث الوزارة ، ولكنه اتخذ للكتابة غيره ، وجعله رديفاً له . فأدارا دفة الامور معاً ، فجرت الدولة على أحسن حال وأقوم طريقة . ثم أرسلوا ابن الخطيب سفيراً الى السلطان أبي عنان ليمدَّهم على عدوّهم الطاغية ملك اسبانيا ، فقام بهذه المهمة على أحسن ما يرام

« نكبته »

دامت هذه الحال خمس سنين . ثم بدأ دورُ أفول نجم لسان الدين بسقوط سلطانه ، وتضييق المتغلب عليه في محبسه وهو يرسل الرُّقَى الى ولاة الأمور من قصائد منمّقة ورسائل بليغة ، فلا تلين لهم قناةً ولا تَرقّ لهم قلباً . حتى سعى له أحد أصدقائه عند ملك المغرب فشفع فيه . وفي أواخر اللمحة البدرية قصيدة له في مدح ملك المغرب والاشارةِ الى هذا الدور من حياة لسان الدين

« عند ملك المغرب »

ندع لسان الدين يحدّثنا عن نفسه بعباراته البديعية المسجوعة ، واصفاً حياته عند ملك المغرب ، حيث يقول (في الاحاطة) :

« وصلَت الشفاعة في مكتتبهِ بخط ملِك المغرب ، وجعل خلاصي شرطاً في العقدة ومسالمة الدوله ، فانتقلتُ صحبة سلطاني المكفور الحقّ الى المغرب . وبالغ ملكه في برّي : منزلاً رَحباً ، وعيشاً خَفْضاً ، وأقطاعاً جمّة ، وجراية ما وراءها مَرْمى . وجعلني بمجلسِهِ صدراً ، ثم أسعف قصدي في تهيؤ الخلوة بمدينة سَلا منوّه الصكوك مهنأ الفرار متفنّداً بالالها والخلع ، مخوّل العقار موفور الحاشية ، مخلّى بيني وبين إصلاح معادي ، الى أن ردّ الله على السلطان أمير المؤمنين أبي عبد الله بن الحجاج ملكه » اه

« وزارته الثانية »

نرجع الى ابن خَلْدون لانه خير من درس لسانَ الدين ، ولأنهُ أعرفُ بدخائل أموره وحقائقها من كل دارسيه وقليلٌ ماهم

عاد لسان الدين الى الاندلس وحظي عند ملكه فولاّه الوزارة وأعاده الى منزلته ، فهنأ عيشه هناك الا ما كان من بعض وجهاء البلاد ممن ساءهم نفوذ لسان الدين فراحوا يكيدون له عند الملك الذي سخط عليهم ونكبهم ، فخلا الجوُّ لابن الخطيب ورفعه الملكُ الى أسمى منزلة وخلط بنيه بندمائه وأهل خلوته وأفرده بتدبير المملكة فأصبح بيده الحل والعقد وانصرفت اليه الوجوه وعُلِّقت عليه الآمال وغصت به بطانة السلطان وحاشيته فتوافقوا على السعاية به

وقد أصمَّ السلطانُ أذنه عن قبولها ، ولكن الخبر نما الى ابن الخطيب فعزم على الرحيل

« ايامه الثانية في المغرب »

برم ابن الخطيب بدسائس القوم فاستأذن سلطانه في تفقد الثغور الغربية فسار اليها في لمّة من فرسانه وانحدر منها الى المغرب حيث وجد فيه كل اكرام ثم قدم على ملكه عبد العزيز عام (٧٧٣) في تلمسان فاهتزّت له الدولة ، واستقبل استقبالاً باهراً ، وأُحلَّ من الدولة بأسمى محلّ . وأخرج السلطان لوقته كاتبه أبا يحيي بن أبي مدين الى الاندلس في طلب أهله وولده ، وقدم بهم على أحسن حال . . . ثم وشوا به الى السلطان ، وأحصوا خطيئاته واتهموه بالزندقة وكان من أكبر العاملين على ذلك ملكُ الاندلس ، لكن عبد العزيز أبت عليه عربيته ووفاؤه أن يخفر جواره ، فزاد في إكرامه واكرام ولده حتى أتته منيته

فقدَ لسانُ الدين بموت عبد العزيز أكبرَ رجل قادر على حمايته فأصبح غرضاً للمصائب والبلايا التي يسعى ليوقعه بها أعداؤه الكثيرون

مقتله

وقعت الحرب بين ملك الاندلس وأحد المتغلبين على المغرب فظفر فيها الاول

واشترط على خصمه تسلم ابن الخطيب ، فقبض عليه عدوه الألد سليمان بن داود وحبسه ، ثم حاكموه على كلمات من الزندقة وجدت في كتبه . ورغماً عن دفاعه عن نفسه وظهور براءته أرسل اليه سليمان في محبسه بعض حاشيته من السفلة فقتلوه خنقاً ، ثم أخرجوه لليوم الثاني ، وأضرموا حوله النار حتى احترق شعره واسودت بشرته ، ثم وضع في حفرته

قف معي أيها القارىء الكريم ، عند ذكرى هذا الرجل العظيم ، ساعة نودعه بها

رحمك الله يالسان الدين ، لقد دخلتَ ميدان العلم فكنتَ فيه من المجلين الفائزين : حفظت لك الأيام آثاراً جليلة فيه ، وأبقيتَ لنا تراثا قيماً وقفت عليه حياتك ، وفارقت لاجله لذاتك ودخلت مضمارَ السياسة فكنت من أقطابها : مضتَ على أزمة الامور فسرتَ نحو الفلاح والرشاد ، وسفرتَ لها عند الملوك فأبتَ بالنجاح ، وبنيتَ لنفسك مجداً تليداً ، وخلدتَ اسمك بين العظماء فهو لا يزال يذكر بالتبجيل والتكريم

لكنّ الدهر أنبهُ من أن يريح أمثالك من العظماء ، فأبعدك عن وطنك ، وأكثر من أعدائك والوشاة بك ، وكثّر عليك المصائب . لكنك لم تيأس ولم تقنط وأنّى لليأس أن يدخل قلباً مثل قلبك ، وأنى للقنوط أن يخالط عظيما مثلك كان يُغضي عنك أحيانا فتنال من نعيم الدنيا ما هو حقّ لك وجزاء لاتعابك لكنه كان ينتبه اليك فينزعها منك بعد أن أمنت بها واطمأننت اليها . ثم كانت خاتمتك في هذه الحياة ـ حياة الجد والعظمة ، حياة التعس والشقاء ـ أن تنالك أيدي من لادونه أحد وأن تموت خنقاً ، ثم تلعب النيران بتلك الجثة الطاهرة

لاعليكَ فان اسمك خالد ، وعظمتك باقية ، وآثارك ناطقة بفضلك أبد الدهر ، وما يضرّك بعد هذا ماوقع لك ، عليك رحمة الله حياً وميتا

محمد علي الطنطاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما

قال الشيخ الفقيه الامام العالم المؤرخ ذو الوزارتين الكاتب البارع الأديب أبو عبد الله محمد بن الخطيب السلماني رحمه الله :

الحمد لله الذي جعلَ الأزمنةَ كالأفلاك، ودُوَلَ الأملاك كأنجم الأحلاك * تُطلعها من المشارق نيّرة ، وتلعب بها مستقيمة أو متحيّرة ، ثم تَذهب بها غائرة متغيرة [1] * السابقُ عَجِل ، وطَبْع الوجود مرتجِل ، والحيُّ من الموت وَجِل ، والدهرُ لا معتذرٌ ولا خَجِل * بينما ترىٰ الدَّستَ عظيمَ الزحام ، والموكب شديد الالتحام * والوَزَعةَ تُشير ، والأبواب يقرعها البشير ، والسرور قد شمل الأهلَ والعشير * والأطراف ، يلثمها الأشراف ، والطاعة يشهرها الاعتراف ، والأموال يَحُوطها العدل أو يُبيحها الإسراف * والرايات تُعقَد ، والأعطيات تُنقَد * إذ رأيتَ الأبوابَ مَهجورة ، والدسوت لا مؤمّلة ولا مَزُورة * والحركات قد سكنتْ ، وأيدي الإدالة قد تمكّنتْ * فكأنْ لم يسمُرْ سامِر ، ولا نهىٰ ناهٍ ولا أمر آمر * ما أشبهَ الليلة بالبارحة ، والغادية بالرائحة ﴿ إنما مَثلُ الحيوٰةِ الدُّنيا كماءٍ أنزلْناهُ من السَّماءِ فاختلطَ به نباتُ الأرض فأصبحَ هشيماً تذروه الرياح ﴾ فالويلُ لمن يتركُ حسنَة تنفعه ، أو ذِكراً جميلاً يرفعه * فلقد عاش عَيْشَ البهيمة النهيمة ، وأضاع جواهرَ عمره الرفيعة القيمة ، في السُّبل غيرِ المستقيمة ، وبذر أمانته سبحانه في المساخط [2]

(١) العائرة : المترددة . وفي المراكشية « غائرة »
(٢) نسخة الاسكوريال : المساقط

العقيمة * وطوبى لمن عرف المصير ، وغافصَ الزمان القصير [١] * في اكتساب محمدة تبقى بعده شهابا ، وتخليد منقبة تفيده ثناءً وثوابا * فالذِكرُ الجميلُ كلما تخلّد استدعى الرحمة وطلبها ، واستدنى المغفرة واستجلبها * فلمثله فليعمل العاملون ، وغايتَه فليأمل الآملون ، ﴿ والدارُ الآخرةُ خيرٌ لو كانوا يعلمون ﴾

والصلاةُ على سيدنا ومولانا ﴿ محمدٍ ﴾ رسولِه الذي شرح حقارة الدنيا على الله وبيّن ، وحدّد [٢] البلاغ منها وعين ، وخفَّضَ الكلمة وليّن ، وحسّن الدار الآخرة وزيّن ، وخفّض [٣] أمرَ هذه الدار الغرور وهوّن * وقال ـ صلاةُ الله وسلامُه عليه ـ « أكثروا من ذِكر هادم اللذّات » كيلا تتشبّث بها يد ، ﴿ ولتنظرْ نفسٌ ماقدّمتْ لغد ﴾

والرضا عن آله الذين جازوا على جسرها الممدودِ ومرّوا ، ولقوا الله وهم لم يغترّوا ، فكانوا إذا عهدوا برّوا ، واذا سمعوا اللغو فرّوا ، وإذا تليت عليهم آيات الله خرّوا * وكانوا عن حدود تقواه لايبرحون ، وبسوى مواهبه الباقية لايفرحون ، ﴿ أولئك حزبُ الله ، ألا إن حزبَ الله هم المفلحون ﴾

أمّا بعدُ فان في تاريخ الدول عبرةً لأولى النُّهى ، وذِكرى لمن غفل عن الله وسها * لتحوُّل الاحوال ، وتصيُّر الرسوم الى الزوال ، وتلاعب زعازع الاهوال ، بالنفوس والاموال * إلى إمتاع المجالسة ، وإتحاف المؤانسة ، عند الملابسة * لاسيما التاريخ الذي لم يُهتدَ لضمّه لديوان ، لقلّة عِيان ، أوتأخُّر زمان * فالنفوس اليه متطلّعة ، وباجتلاءِ أنبائه [٤] متولّعة

لذلك ما جلبتُ في هذا الكتاب ذِكرَ (ملوك الدول النَّصْرية) على نسق ،

(١) غافصه : أخذه على غرة

(٢) في نسخة الاسكوريال « وحد »

(٣) كذا في النسختين ، وفي هامش المراكشية بخط أحدث « وحقر »

(٤) في المراكشية « اغراضه »

وأطلعتُ منهم في ليل الخبر بُدورَ غسَق * إذ كنتُ جُهَينة أخبارهم ، وقطبَ مَدارهم ، و زِمامَ دارهم * فذكرتُ نبذاً من أخبار وطنهم الذي سكنوه ، وأفقهم الذي حسّنوه ، بسِيَرهم الحميدة وزيّنوه * ومن دالَ به قبلهم من أمير ، أو ذي حَسَبٍ شهير * ثم تعاقبهم بحسب الزمان ، وسَعة الامكان * و مَن اختصّ بهم من قاضٍ وكاتبٍ ووزير ، أو كان على عهدهم من مَلِكٍ كبير ، أو حادث يليق بتخليد أو تسطير * وسميته بـ ﴿ اللَّمْحَة البَدْرية ، في الدولة النَّصْرية ﴾ فان كانت الاجادة فهو القصد ، أو كانت الاخرى بُذل الجهد ، وحصلت البراءة من التقصير ولله الحمد * وها أنا أبتدي ، وبالله أهتدي ، وعفوُه يتغمّد ما خطته يدي

وينقسم حسبما يُذكر :

القسم الاول في ذكر المدينة التي اقتعد هذا الملكُ سريرَها ، وأحكم تدبيرَها

القسم الثاني فيما يرجع اليها من الاقاليم والاقطار ، على الايجاز والاختصار

القسم الثالث فيمن دالَ بها من أمير ، وسلطانٍ شهير

القسم الرابع في عوائد أهلها وأوصافهم ، على تباين أصنافهم

القسم الخامس في نَسَق الدُوَل ، واتصال الاواخر منها بالأُوَل . وما يخص كل دولة من الالقاب ، والاذيال المستطرفة والاعقاب

القسم الاول

﴿في ذكر المدينة التي اقتعد هذا الملكُ سريرَها﴾
﴿وأحكمَ تدبيرَها﴾

قال المؤلف : هي غَرناطة وأغرناطة اسمٌ أعجميٌّ ، مدينة كورةِ إلْبِيرة ، وتسمّى سَنام الاندلس (١) . وإلْبيرة ـ التي انتقل منها الملكُ اليها عام أربعمائة من الهجرة الكريمة ـ على نحو فرسخ وثُلث فرسخ ، ولها من الشهرة بنفسها وأعلامها ماهو معلوم

وأغرناطة من معمور الاقليم الخامس (٢) : يبتديء من بلاد يأجوج ، ثم يمرُّ على خُراسان ، ثم يمرّ بسواحل الشام ، ثم على كثير من بلاد الاندلس الى البحر المحيط الغربي . فهي قريبة من الاعتدال ، شامية في أكثر الاحوال . بينها وبين دار الملك الاول قرطبة ـ أعادها الله ـ تسعون ميلا ، وهي منها بين شرق وقبلة ، والبحر الشامي بين غرب وقبلة على أربعة بُرُد (٣) ، والجبال بين شرق وقبلة ، والبراجلات (٤) بين شرق وجوف (٥) ، والكنبانية (٦) بين جوف وغرب *

(١) كذا في الاحاطة (١ : ١١) وكذا كانت في المراكشية ثم كتب فوق « سنام » بخط جديد « شام » . وفي نسخة الاسكوريال « بشام » . وفي الواقع ان غرناطة كانت تسمى شام الاندلس أو دمشق الاندلس وسترى قول المصنف انها «شامية في أكثر الاحوال» قال ابن جبير يخاطب غرناطة :

يا دمشق الغرب هاتيـ ـك لقد زدت عليها
تحتك الانهار تجري وهي تنصب اليها

(٢) وانظر تحديد الاقليم الخامس في مقدمة معجم البلدان لياقوت

(٣) البريد ١٢ ميلا

(٤) كذا في النسختين . وفي الاحاطة (١ : ١٤) « والبواجلات » . وسيأتي في ص ١٨ لفظ برجيلة ولعله بمعنى قرية أو مزرعة

(٥) كذا في النسختين . وأخبرني الفاضل السيد محمد المكي الناصري أن الجوف في اصطلاح المغاربة الجهة المقابلة للقبلة أي الشمال

(٦) كنبانية : ناحية بالاندلس قرب قرطبة

فهي لمكان جوار الساحل مُمَارة بالسمك والبواكر، طية للتجار، ركاب للجهاد في البحر . ولمكان استقبال الجبال مقصودة بالفواكه المتأخرة اللحاق مماسكة في الجدوب معلاة بالمدّخرات . ولمكان استدبار الكنبانية واضطبان البراجلات[1] بحرٌ من بحار الحنطة، ومعدِن من معادن الحبوب المفضلة [و الحرير والسكر[2]]. ولمكان جبل الثلج شُلَير الشهير في جبال السفرة اطّرت بها المياه وصحّ الهواء وتعددت البساتين والجنات والتفّ الدوح وكثرت الأعشاب الطيبة والعقاقير الدوائية

ومن فضائلها أن أرضها لا تعدم زريعة ولا ريعاً[3] أيام العام . وفي عمالتها المعادن الجوهرية من الذهب والفضة والرصاص والحديد والتوتيا والمرقشيشا والازورد . وبجبالها وبطاحها الاندارسيون والسنبل والجنطيانا[4]. وبشعرائها القرمز الى غلة الحرير الذي فضلت به تجراً وقنيةً هذه الكورة فلا يشاركها في ذلك إلا البلاد العراقية مقصرة عنه رقة ولدونة وعتاقة

وفحصها الأفْيَحُ ـ المشبَّهُ بالغُوطة ـ حديث الركاب وسمر الليالي . قد دحاه الله في بسيط تخترقه الجداول والأنهار، وتتزاحم به القرى والجنّات : في أحسن الوضع وأجمل البناء، ذرع أربعين ميلا، تحدق الهضابُ والجبال المتطامنة منه بشكل ثُلُثَي دائرة، فعُدَّت المدينة منه فيما يلي المركز مستندةً الى أطوادٍ سامية، وهضابٍ عالية، ومناظرَ مشرفة

(١) الضبن : الابط . والاضطبان ان يكون الشيء تحت الابط. أراد أن مكان البراجلات من قرطبة كأنها تحت ابطها

(٢) المحصور بين هاتين العلامتين [ ] ليس في متن النسختين ولا في الاحاطة (١ : ١٤) ولكنه زيد في هامش نسخة الاسكوريال

(٣) في المراكشية « ريفا » وفي الاحاطة (١:١٥) رميا

(٤) كذا في نسخة الاسكوريال والاحاطة (١: ١٥) . وفي المراكشية الجيطانا

ويشتملُ شكلُ هذه المدينة العظيمة ـ وما يرجع اليهـا من أرباضها ـ على جبال خمسة ، وسَهْل فسيح الساحة ، بعيد الأقطار ، متراكب العمارة ، لا يتخلله خراب ولا بياض على حدٍّ ما . عليه كُوَر النخل . قد ضم من النسم ما لايحيط به إلا من كتب الحركاتِ وأحصى الأنفاسَ . إلى الجسور المحكَمة ، والمساجد العتيقة ، والأسواق المنتظمة . يشقُّ البلدَ النهر الشهير المسمَّى بهـدّارة آتياً من جهة الشرق ، ويجتمع بخارجها بوادي شنجل الآتي من قبليّها ، فيشقُّ الفحصَ الأفيَح ولا يزال يعظم مدُه بما ينضاف اليه من فضول السقي ومواقع الانهـار بأحوازها ، الى أن يمرّ باشبيلية وقد صار نيلاً عظيما

ومدينة ﴿ الحَمْراء ﴾ دار المُلك مُطلَّة على معمورها في سَمت القبلة : تُشرف عليه منها الشُرفات البيض ، والأبراج السامية ، والمعاقِل المَنيعة [١] والقصور الرفيعة ، تعشي [٢] العيون ، وتبهر العقول . وتنحدر من فضول مياهها وأفياض حوائرها وبركها في سفحه [٣] جداول تُسمع على البعد أهزاجها

ويحفُّ بسور المدينـة البساتين العريضة المستخلصة ، والادواح الملتفة ، فيصير من ذلك خلف سياج تلوح نجوم الشرفات البيض أثنـاء خضرائه فلا تعرَى جهة من جهاته عن الجنات والكروم والبساتين

وأما ما حازه السّهل من جوفيه [٤] فمُنى عظيمة الخطر ، متناهية القيَم ، تضيق جِدَةُ مَن عدا أهلَ الملك عن الوفاء بأثمانها . منها ما يُغلُّ في السنة شطر الألف من الذهب على خمول أثمان الخضر بهذه المدينة ، يختصّ منها بمستخلَص السلطان ما يناهز ثلاثين منْيَة . ويحيط بها ويتصل بأذيالها من العقَار الثمين الذي لا يعرف الجمام ولا يفارق الريع ماينتهي المرجعُ العملي منه الى نحو خمسة وعشرين ديناراً

(١) في المراكشية : المنيفة (٢) في المراكشية : تغشي
(٣) كذا في المراكشية . وفي الاخرى « سمحة » (٤) شماليه

من الذهب لعهدنا هـذا ، وفيـه من مستخلَص السلطان ما تضيق عنه بيوت الأموال ذرعاً وغبطة وانتظاماً ، يرجع [1] الى دور ناجمة وبروج سامية وبيادرَ فسيحة وقصابٍ للحمائم والدَّواجن ماثلة ، منها في رحى البـلدة وطوق سورهـا من مستخلَص السـلطان ماينيف على العشرين ، بها الجُمل الضخمة من الرجال[2] ، والفحول الفارهة من الحيوان للاثارة وعلاج الفلاحة ، وفي كثير منها الحصون والارحاء والمساجد . ويتخلَّل هذا المتاع الغبيط[3] الذي هو لباب الفلاحة وعين هذه المدرة الطيبة سائرَ القرى والبلاد التي بأيدي الرعية ، مجاورة لحدود ماذُكر بلادٌ عريضة وقرى آهلة : منها ما انبسط وتمدَّنَ فاشترك فيه الألوف من الخلق وتعددت فيه الأشكال ، ومنها ما انفرد بمالكٍ واحد أو اثنين فصاعداً وتنيف أسماؤها على ثلاثمائة ، تُنصب في نحو خمسين منها منابرُ الجمعات وتمدُّ الاكف البيض وترفع الأصوات [4] الفصيحة لله . ويشتمل سور هذه المدينة وما وراءه من الارحاء الطاحنة بالماء المعين على أزيد من مائة وثلاثين رَحىً

فصل

واختلف المؤرّخون في خبر افتتاحها ، فقال ابن القوطية [5] إن بليان الذي نَدَبَ العربَ الى غزو الاندلس طلباً بوَتره من مَلِكها لُذْريق بما هو معلوم ، قال لطارق بن زياد مفتتحها عند ما كسر جيشَ الروم على وادي لكة وقتل لُذْريق واستولى على محلَّته : قد فضضْتَ جيشَ الروم ودوَّختَ حاميتهم

(١) في المراكشية « ما يرجع »

(٢) الجل : الجماعة من الناس

(٣) أغبط النبات غطى الارض وكثف وتدانى . والغبط القبضات المحصودة المصرومة من الزرع

(٤) في المراكشية « الالسن » (٥) في المراكشية « القويطية »

وصيّرتَ الرعبَ في قلوبهم ، فأصمد لبيضتهم . وهؤلاء أدلاّء من أصحابي [١] ففرقْ جيوشك بينهم في البلدان ، واعمد الى طليطلة بمعظمهم واشغل القوم عن النظر في أمورهم والاجتماع الى أولي رأيهم . ففرقَ طارق جيوشه من إستجة [٢] : فبعث معينا الرومي [٣] مولى الوليد الى قرطبة ، وبعث جيشاً آخر الى مالقة ، وأرسل جيشاً آخر الى غرْناطة مدينة إلْبيرة ، وسار هو في معظم الناس الى كورة جيّان يريد طُلَيطلة ، فمضى الجيش الى مالقة فافتتحها ، ثم لحق بجيش غرناطة فحاصرا مدينتها ثم فتحاها عَنوة والفوا بها يهوداً ضموهم الى قصبتها [وصار لهم ذلك سُنّة متبعة متى وجدوا بمدينةٍ يهوداً يضمونهم الى قصبتها [٤]] مع طائفة من المسلمين يسدّونها

وقال معاوية بن هشام وغيره : إن فتح ماذ كر تأخّر الى دخول موسى بنِ نُصَير في سنة ثلاث وتسعين ، فوجّه ابنه عبدَ الاعلى في جيش الى جهة تدْمير فافتتحها ، ثم مضى الى إلْبيرة فافتتحها ، ثم توجه الى مالقة

فصل

فلما استقرّ الفتح وبلغ حيث بلغ من التخوم سكنت العربُ الاقطارَ وتبوّأت الديار . ثم دخلت بعد ذلك العربُ الشاميّون مع الامير بَلْج بن بِشر القُشيري في عشرة آلاف فارس من أعلام أهل الشام ، وتسمى ﴿ الطالعة البَلْجية ﴾ : فالداخلون مع موسى وطارق يسمّون بالاندلس في الرسوم والخطوط

(١) في نسخة الاسكوريال « أدلاء أصحابي »
(٢) في نسخة الاسكوريال (آسجة) وفي المرا كشية (اشتجة) وصححناه من معجم البلدان والاحاطة (١ : ١٧)
(٣) في الاحاطة (١ : ١٧) مغيثا الرومي
(٤) الزيادة في نسخة الاسكوريال دون المرا كشية . وهذه الزيادة في الاحاطة أيضا

والاقطاعات بالبلديين ، والداخلون مع بلج بن بشر يُسمون بالشاميين، واختص بكورة إلبيرة وهي التي أوقعوا عليها اسم دمشق جندُ دمشق ، وبكورة جيّان جند قِنّسْرين وبأشبيلية جند حِمْص ، وسواها من الكور بهذه النسبة . ونزلت بهذه الكورة الإلبيرية من أعلام العَرَب الذين بها الى هذا العهد بيوتهم جملة من القبائل : منهم بيوتات من قَيْس عَيْلان ، ومن عَبْس بن بَغِيض[١] ، ومن أشْجَع بن رَيْث[٢] ، ومن باهِلة ، ومن سُلَيم بن منصور ، ومن جديلة ، ومن كلاب بن رَبيعة ، ومن عُقيل بن كعب ، ومن هلال بن عامر ، ونُمَير بن عامر، ومن سَلول ، ومن ثَقيف ، ومن غافق بن الشاهد[٣] ، ومن عَكّ ، ومن الانصار وهم بنو الأَوْس والخَزْرَج ، ومن غسّان ، ومن الازْد ومن الغوث[٤] ، ومن بَجيلة ، ومن خَثْعَم ، ومن كِنْدَة ، ومن السَكاسِك ، ومن تُجيب ، ومن جُذام بن عدي ، ومن خَولان بن عمرو ، ومن المعافر بن يَعْفُر ، ومن مَذْحِج ، ومن حكم ، ومن حضرموت ، ومن جُعفي ، ومن سعد العشيرة ، ومن هَمْدان ، ومن حِمْيَر ، ومن شَرْعَب ، ومن ذي رُعَيْن ، ومن ذي أصبَح ، ومن يَحْصُب بن مالك ، ومن كلب بن وَبَرَة ، ومن جُهَينة ، الى كثيرين

(١) بغيض جد عبس بن ذبيان بن بغيض

(٢) في الاصلين « أشجع بن ريب » وفيه نظر من وجهين : الاول أن صواب ريب « ريث » والثانى أن ريثاً اخو أشجع لا أبوه وهما ولدا غطفان (انظر كتاب الاشتقاق لابن دريد ص ١٦٧)

(٣) ورد الشاهك بالكاف في الاصلين . والذى في تاج العروس (مادة غفق) : غافق قبيلة من الازد ، وهو ابن الشاهد (بالدال) ابن علك بن عدنان بن عبد الله بن الازد ، واليهم ينسب الحصن (أراد حصن غافق في اعمال فحص البلوط بالاندلس بينه وبين قرطبة مرحلتان)

(٤) كذا في نسخة الاسكوريال . وفي المراكشية « ومن ولد الازد بن الغوث »

القسم الثانى

﴿ فيما يَرجع اليها من الاقاليم والاقطار ﴾

« على الايجاز والاختصار »

قالوا : يرجع الى هـذا الوطن الشريف من الاقاليم ثلاثة وثلاثون إقليما * منها : اقليم أونيل ، واقليم الفحص [١] ، واقليم تاجرة الجبل . وحصن مسّنيط (وهو بلدُنا لَوْشَة . قال ابن حمامة في تاريخه : لوشة من إلبيرة غربا وقبلة من قرطبة على نهر شنيل [٢] ، بنيت عام ثمانين ومائتين زمن عبد الله بن محمد جد الناصر . قاله عريب [٣] في كتابه . وهي بلد جليل كثير الخصب متدفق المياه ، كثير الحصون والقرى ، جامع المرافق) واقليم برجيلة قيس [٤] وفيه مُت لوزنة وحصن لوشة [٥] ، واقليم برجيلة أندرة وفيه حصن قنالش بني حربون ، واقليم برجيلة أبي حرير وهي حصن بكور ، واقليم برجيلة البنيول [٦] وفيه حصن منتشاقر ، واقليم قلعة يحصب بين غرب وجوف من إلبيرة على عشرين ميلا ، واقليم باغه وبه المدينة الشهيرة ـ وهذان الاقليمان استولى عليهما العدوّ على عهدنا عقب الكائنة بطريف فعظم فيهـا الفَجْع ـ واقليم مشيلية ، واقليم القبذاق ـ وهو أيضاً مما تقدَّم التغلّب عليه جبره الله ـ واقليم قنب قيس ، واقليم

(١) قال ياقوت : بالمغرب من أرض الاندلس مواضع عدة تسمي الفحص ، وسألت بعض أهل الاندلس : ما تعنون به ؟ فقال : كل موضع يسكن سهلا كان أو جبلا بشرط أن يزرع نسميه فحصا ، ثم صار علما لعدة مواضع

(٢) كذا في النسختين . وفي معجم البلدان (مادة لوشة) : على نهر سنجل نهر غرناطة

(٣) في نسخة الاسكوريال « عريف »

(٤) لعل برجيلة واحدة البراجلات التي تقدمت في ص ١٢

(٥) كذا في نسخة الاسكوريال . وفي المراكشية « وحصن مالش »

(٦) كذا في المراكشية . وفي الاخرى (السبيول)

قنب اليمن ، واقليم الاشر وفيه حصن نَوالش ، واقليم شلوبانية [١] وفيه المعقل العظيم بشاطيء البحر فيه للسلطان قصور نبيهة وبساتين عظيمة ، واقليم المنكّب وفيه المدينة العتيقة ذات الآثار العجيبة ، واقليم بشرة بنى حسّان وفيه حصن بَرْجة والعَذْراء والقُليعة وحصن شبالش ودلاية . وبهذا الاقليم غبط كثير وعمران عظيم [٢] وهو معدِن من معادن الحرير ، واقليم بُريرة [٣] وفيه حصن أرحبة والانجرون وحصن أندرش وهو جليل المجبى عظيم المئونة ، واقليم أرش قيس وفيه مرشانة ومندوشر ، وحصن بلذوذ ، واقليم أرش اليمن وفيه مدينة المَرِيّة معقل الاسلام ذات القصبة الشهيرة والجباية الغزيرة والبساتين النضيرة والذمم الخطيرة . ويرجع اليها من الحصون بشرقيّها وغربيها عددٌ كثير كطبرنش وهي بلد كبير فيه المساجد والحمام ، واقليم ارش اليمانية فيه جلينالة وانجة ، واقليم أرش اليمنيين فيه مدينة بني سام بن مهلهل وهي مدينة وادي آش احدى قواعد الاسلام لا نظير لها سقيا ومنعة ونضارة ويرجع اليها من الحصون النبيهة الجليلة جملة ، واقليم ارش اليماني فيه القليعة ومُنتُرُوي فيه مدينة فنيانة وهي كلها غزيرة السقيا والثمار ، واقليم فَرارة ، واقليم بنى أوس ، واقليم بني أميّة ، واقليم فرنش وفيه حصن الصخيرة واقليم دور ، واقليم الفحص خمسة أقاليم : هَمْدان ، والفخار ، وأنبلاط ، وقلوبش ، والكنابس ذكر ذلك أبو القاسم الملاحي وغيره وأغفل أكثر مما أثبت ، وجلالة هذه المدينة أعظم

وهذه الاقاليم منها ما استمرّت الى الآن شُهرته بما دُعي به ، ومنها ما عم الجهل به على عادة الدهر مُبلي الاسماء والمسميات ، وماحي الاعلام والسمات . والبقاء لله

ومن أراد استيفاء فضائل هذه البقعة فعليه بكتابنا المسمّى بالاحاطة

(١) كذا بالنسختين ، وعند ياقوت « شلوبلية » (٢) الغبط القبضات المحصورة المصرومة من الزرع (٣) في نسخة الاسكوريال « فريرة »

القسم الثالث

﴿ فيمن دال بها من أمير ، وسلطان شهير ﴾

قال المؤلف : وأول من سكن هذه المدينة سكنى استبداد وصيّرها دارَ ملك ومقرّ إمرة الحاجبُ المنصور أبو مُثَنّى زاوي بن زِيري بن مناد الصنهاجي لمـا تغلّب جيشُ البربر مع أميرهم سليمان بن الحكم على قرطبة واستولوا على الكثير من كوَر الاندلس عام ثلاثة واربعمائة فما بعـدها ، وظهر على طوائف الاندلسيين واشتهرَ أمرُه وبعُد صيته . ثم أجاز البحر الى بلد قومه بافريقية بعد أن ملك بغرناطة سبع سنين واستخلف عليها ابنَ أخيه حبوس بن ما كسن وكان حازماً داهية فتوسّع النظر الى ان مات سنة تسع وعشرين وأربعمائة ، فولي بعده ابنه الحاجب المظفّر باديس فاتّسع النظر وتوفي عام خمسة وستين وأربعمائة ، فولي بعده حفيده عبـد الله بن بلقين بن باديس الى أن خُلع في عام ثلاثة وثمانين وأربعمائة ، وتصيّر أمرها الى مُلك الامراء من لمتونة لمـا ملـكوا أمر المسلمين بالاندلس

فصل

وتصيّر الامر بها الى الامير يوسف بن تاشفين ثم الى ولده من بعـده ، فتناوب امارتَها جملة من أبناء ملوك لمتونة وأمرائها وقرابتهم ، كالامير أبي الحسن ابن الحاج ومجوز وأخيه موسى والامير أبي يحيى أبي بكر بن ابراهيم والامير أبي الطاهر تميم والامير أبي محمد بن مزدلي والامير أبي بكر بن أبي محمد وأبي طلحة الزبير بن عمر وعثمان بن يدو (١) وعلي بن غانية الى أن انقرض أمرهم

(١) كذا في نسخة الاسكوريال . وفي المرا كشية « يزيد »

منها عام أربعين وخمسمائة . وتصيّر الامر بها الى مُلك بني عبد المؤمن المتسمّين بالموحدين

فصل

فوليها الامير أبو محمد عبد المؤمن بن على وأبناؤه وقرابته كالسيد أبي سعيد عثمان بن الخليفة والسيد أبي اسحاق بن الخليفة والسيد أبي ابراهيم والسيد أبي عبد الله ، الى ان انقرض أمرهم واختلّ ملكهم ، فقام عليهم بالاندلس الامير المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي عام ستة وعشرين وستّمائة ، ثم اضطرب أمره ولم ينشب أن ثار عليه هذا البيت من ﴿ بني نصر ﴾ ملوكها الى الآن ، رحم الله من درج منهم وأعان من خَلَفهم باحسان

فصل

وجمع الله ما أسأره العدوّ من الاندلس بعد الخضم والقضم[١] على قوم من خيار الامة من سكان الموسطة القرطبية ، ممن الجهاد شأنهم ، والفلح معاشهم ، والنجدة شهرتهم ، وإلى سعد بن عُبادة سيد أنصار رسول الله ﷺ نسبتهم يعرفون ببني نصر : رقعوا الخرق وشعبوا الثأى ، وزجوا الايام بين أطماع وهدنة ، ومنعة وانحياز ، ومدافعة وجهاد وموافقة

وقد صنّف الناس لهم — في اتصال نسبهم بقيس بن سعد بن عُبادة رضي الله عنه — غير ما تصنيف

فاوّلهم الغالب بالله أمير المسلمين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن احمد بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي الانصاري من ولد أمير

(١) أسأره : أبقاه (من السؤر وهو بقية الشيء) . والخضم : الاكل بأقصى الاضراس ، والقضم : بادناها

الانصار سعد بن عُبادة ، ملكَ مدينة غَرناطة في رمضان من عام خمسة وثلاثين وستمائة الى أن توفي عام أحد وسبعين وستمائة . وولي بعده ولده وسميه السلطان — ثاني ملوكهم وعظيمهُا — أبو عبد الله . وطالت مدته الى أن توفي عام أحد وسبعمائة . وولي بعده ولده وسميه أبو عبدالله محمد ، وخلع يوم الفطر من عام ثمانية وسبعمائة ، وتوفي في شوال عام احدى عشر وسبعمائة . وولي بعده خالعه أخوه نصر أبو الجيوش وارتبك أمره وطلب الامرَ ابنُ ابن عمّ أبيه السلطان أبو الوليد اسماعيل بن فرج بن اسماعيل صنو الامير الغالب بالله أول ملوكهم ، فتغلب على دار الامارة في ثاني ذي القعدة من عام ثلاثة عشر وسبعمائة ، وانتقل نصر مخلوعاً الى مدينة وادي آش ، وتوفي عام اثنين وعشرين وسبعمائة . وتمادَى مُلك السلطان أبي الوليد الى الثالث والعشرين من رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، ووثب عليه ابنُ عمه في طائمة من قرابته فقتلوه ببابه ، وخاب فيما أملوه سعيُهم (١) فقتلوا كلهم يومئذ . وتولى أمره ولده محمد ، واستمر الى ذي حجة من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة وقُتل بظاهر جبل الفتح بأيدي جنده من المغاربة . وتولى الامر بعده أخوه أبو الحجاج يوسف ودام ملكه الى يوم عيد الفطر من عام خمسة وخمسين وسبعمائة ، وترامى عليه في صلاته ممرورٌ بمدية في يده فقتله . وقدم لامره الاكبرُ من أولاده (٢) وخيرة قومه وأفضل الملوك من أهل بيته الى ليلة الثامن والعشرين من شهر رمضان عام ستين وسبعمائة . وثار به أخوه بتدبير ابن عمّ لهما عقد له ابوهما على بعض بناته وفرّ ولحق بوادي آش الى ان استقر منها بالمغرب ، وتمادى ملك أخيه اسماعيل الى اخريات شعبان

(١) كذا في نسخة الاسكوريال . وفي المرا كشية « وخاب فيما أمله فقتلوا » الخ

(٢) في المرا كشية « أكبر ولديه » وفي الاحاطة (١ : ٤٠) : « وولي الامر بعده محمد اكبر بنيه وأفضل ذويه . . . الخ »

من عام أحد وستين وسبعمائة . وسطا به ابنُ العم المذكور فقتله بدار ملكه وفتك به فتكةً شنعاء وألحق به أحا صغيراً له واستولى على الملك وانتقل به الى فرع آخر

هذا ذكر الملوك على سبيل الاختصار ، ليكون كالبرنامج لماعسى أن ينبسط فيه الالماع من ذكرهم بحول الله وقوّته

فصل

ويتفرّع أعلام هذا البيت لمن تشوّف الى ذلك من أعقابهم حسبما يُذكر ان شاء الله

وَلد نصرٌ رحمه الله ولدَين : يوسفَ ومحمداً ببلدهم أرجونة أعادها الله ، وهم يومئذ مرءوسون بسواهم

فلنبدأ بيوسف رحمه الله . فاذا استقصينا ما بلغ اليه العلم من عقبه عطفنا على أخيه من غير أن نذكر الا الأعلامَ وأهل الشهرة :

فولدَ يوسفُ ـ أحدُ الأخوين ـ أربعة نفر : محمداً أميرَ الاندلس أولَ ملوكهم ، وإسماعيلَ صِنوَه المستقرَّ بمالقة من قِبَله ، وفرجاً ، ويوسف

فأما محمد منهم أمير المسلمين الغالب بالله فأعقب من الذكور أربعة : محمداً وفرجاً ويوسف ونصراً . فأما محمد فهو منهم وليُّ الأمر من بعده ، وفرجٌ ويوسفُ ونصرٌ ـ وهو الوالي بعد أخيه وأبيه ـ وكلهم لم يعقب

وأما اسماعيل أحد الأربعة الاخوة من أولاد يوسف ، وهو المدعوُّ أميرَ المسلمين المستقرُّ عن أمر أخيه بمالقة فأعقب فرجاً ومحمداً . فرجٌ منهما هو المستقرُّ بمالقة بعده المسمَّى بالرئيس أبي سعيد المتصيّر الملكُ الى ولده وأعقب ولدين : إسماعيلَ أمير المسلمين الذي نقل الملكَ الى فرعه على حياته ، ومحمداً أخاه .

فأعقب السلطانُ أبو الوليد منهما أربعةً من الذكور أولهم محمدٌ الأميرُ من بعده وهلك ولم يعقب . وفرجٌ ولم يملك وتُوُفيَ مغتالاً بأمر أخيه ، وأعقب ولداً اسمه اسماعيل هو الآن بالمغرب مشكور الحالة [١] . واسماعيل [٢] واعتقل مدة ثم استقرّ الآن بالمغرب وهو من فضلاء البيت وخيارهم أهل العفاف والعافية . ويوسف [٣] وهو الأمير بعد أخيه ، وأعقب ثلاثة من الذكور : محمداً أمير الاندلس من بعده المتفق على فضله وطهارته ، وثار به أخوه فانتقل الى المغرب في خبر طويل يُنظر في موضعه ، وله الآن بُنيٌّ اسمه يوسف والله يجبره ويجبر به . وأخوه اسماعيل الوالي بعده قتل . وقيسٌ أخوه ولم يعقبا

وأما محمدٌ ثاني ولدي الرئيس أبي سعيد فأعقب أولاداً : منهم يوسفُ وفرجٌ ومحمد واسماعيل . فأما يوسف منهم فهو الآن قد أسنّ بالمغرب تحت عُلالة جراية ، وله ابنٌ يُباشر خدمة السلطان . وأما فرجٌ فحجّ ثم هلك بالمغرب . وأما محمد فهو أيضاً بالباب المَرِيني حيدُ الحالة متّصف بعقل وحشمة مشتغل بالصيد واضراء الجوارح تحت سترٍ ونعمة . وأما اسماعيل فهلك في بعض النزوات [٤] بالمغرب . وتخلّف ابناً اسمه محمد هو المتصيّر اليه مُلك الاندلس اليوم غِلاباً [٥] من غير وراثة مصنوعاً له غريب الحال في باب الحظّ وتأتي الأمر .

وتخلّص تفريعُ [٦] اسماعيل بن يوسف من الأربعة الاخوة

(١) كذا بالمراكشية وبهامش نسخة الاسكوريال . وفى متن نسخة الاسكوريال « مستور الحالة »

(٢) ثالث أبناء السلطان أبي الوليد (٣) رابعهم

(٤) كذا في نسخة الاسكوريال . وفي المراكشية « الغزوات »

(٥) كذا فى المراكشية . وفى الاخرى « غلاما »

(٦) فى المراكشية « ترفيع »

وأما محمد وهو أحد ولدَي اسماعيل بن يوسف أخو الرئيس أبي سعيد فأعقب اسماعيل المدعوّ بالرئيس أبي الوليد صاحب الجزيرة . وأعقب هذا الرئيسُ أولاداً ثلاثة : محمداً وعلياً وفرجاً وهم الفاتكون بالسلطان ابن عمهم ببابه ، استأصلهم القتل وأولادَهم وتخطّى منهم ولداً لمحمد وثانياً لفرج هما بقيد الحياة وعلى رسم مثابهم . وانتهى هذا الفرعُ من الأربعة

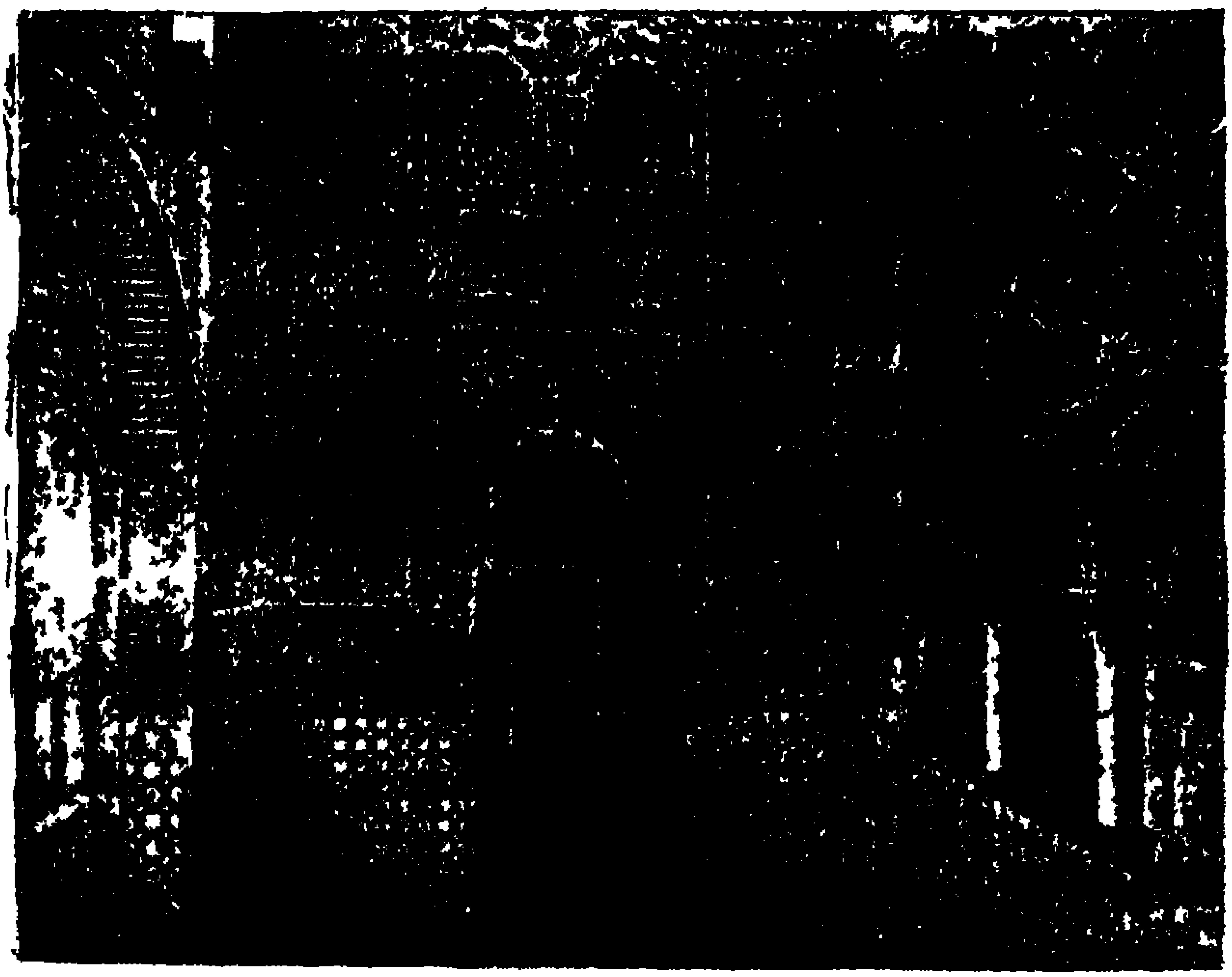
وأما يوسف بن يوسف بن نصر رابع الاخوة وهو المدعوّ بصاحب مُنكَّب فأعقب محمداً ثم أعقبَ محمدٌ يوسف ، وأعقب يوسف محمداً المستقرّ الآن بالمغرب معظَّمُ القدر مرشحٌ للعظيمة ، توجَّه في خدمة الأمر المريني بأسطول المغرب الى تونس فافتتحها وحسُن فيها أثره وهو اليوم ببابهم أعرضُ قومِهِ نعمة وأشهرهم رتبة . وأما فرجٌ من الاخوة فاستشهد في بعض غَزوات الشرق عن غير عقب

وأما محمد أحد ولدَي الجدّ نصرٍ فأولد ثلاثة نفر : يوسف الرئيس المنبز بقندريل ، واسماعيل المنبز بالرئيس الفحمي [١] ، وأحمد المنبز بالرئيس الفجّلِب [٢] . فأما يوسف منهم فأولدَ ثلاثة نفر : علياً المعروف بالعروس ، ويوسفَ ونصراً . فولد يوسف المنتزي بوادي آش والمتغلّب عليها والمقتول صبراً . وأما اسماعيل من الثلاثة فأولد ابراهيمَ ومحمداً وعلياً . ولد منهم محمد ثلاثة : اسماعيل وفرجاً ومحمداً ، وليس فيهم من أعقب . وأما أحمد المنبز بالفجّلِب فولد أربعة نفر : اسماعيل وفرجاً وعلياً ونصراً . ولدَ منهم اسماعيلُ نصراً المعروف بصاحب بسطة ثم الجزيرة . وأما نصر فلم يعقب . وأما فرجٌ فأعقب ثلاثة . وأما عليّ رابع أولاد الرئيس المنبز بالفجّلِب وهو الرئيس

(١) كذا بنسخة الاسكوريال . وفي المرا كشية « الفحمي »
(٢) كذا بنسخة الاسكوريال . وفي الاخرى « المجلب »

أبو الحسن صاحب الجيش فتخلف جملة من الولد ظهر منهم رجلان عليٌّ سميُّه وصاحب بعض خططه مضعوف قد أسنّ من غير عقب وأخاه (١) أحمد مثله تخلف ثلاثة من الولد في خدمة ابن عمهم بالاندلس ومقيمين للرسم

وقد حصلَ القصد من ذكر أُلي النباهة من هذا البيت لما عسى أن يجرّه ذكر ، أو يدعوَ اليه تاريخ أو خبر



﴿ داخل مسجد الحمراء ـ من بناء بني نصر ﴾

(١) كذا بالنسختين

القسم الرابع

﴿ في عوائد أهل هذه المدينة وأوصافهم ﴾

« على اختلاف أصنافهم »

من كتاب ﴿ الاماطة، عن وجه الاحاطة، فيما أمكن من تاريخ غَرناطة ﴾ قال :
أحوال أهل هذا القطر في الدين وصلاح العقائد أحوال سنّية ، والاهواء والنِحَل فيهم معدومة ، ومذاهبهم على مذهب مالك بن أنَس إمام دار الهجرة جارية ، وطاعتهم للامراء مُحكمة ، وأخلاقهم في احتمال المعاون الجبائية جميلة . وصوَرهم حسنة : معتدلة أنوفهم ، بيضٌ ألوانهم ، مسودّة غالباً شعورهم ، متوسّطة قدودهم ، فصيحة ألسنتهم ، عَرَبية لغاتهم يتخلّلها عُرفٌ كثير وتغلب عليها الامالة . وأخلاقهم أبيّة في معاني المنازعات ، وأنسابهم عربية ، وفيهم من البربر والمهاجرة كثير

ولباسهم الغالب على طبقاتهم الفاشي بينهم المَلَفُ المصبغ[1] شتاء تتفاضلُ أجناس البَزَ[2] منه بتفاضل الجِدات والمقادير . والكَتّانُ والحريرُ والقطن والمرْعِزّى والاردية الافريقيّة والمقاطع التونسية والمآزر المشفوعة صيفاً . فتبصرهم في المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهارُ المفتّحة في البطاح الكريمة تحت الأهوية المعتدلة

وجندهم صنفان : أندلسيٌّ وبربريّ

الاندلسي منه يقوده رئيس من القرابة أو أحِضياء الدولة ، وزيّهم في

(١) الملف : الجوخ المنسوج من الصوف
(٢) في المراكشية « النزر »

القديم شبيه بزي جيرانهم وأمثالهم من الروم في إسباغ الدروع وتعليق الترسة وجفاء البيضات واتخاذ عراض الأسنّة وبشاعة قرابيس السروج واستركاب حَمَلة الرايات خلفهم : كلٌّ منهم بسِيمَة تخصّ سلاحه ، وشهرة يُعرف بها . ثم عدلوا الآن عن هـذا الزيّ الى الجواشن المختصرة ، والبيضات المذهبة [1] والسروج العربية ، واليَلَب اللَمْطيَّة ، والاسل اللطيفة

والبربري منه ترجع قبائله المرينية والزّيانية والتجانية والعجيسية والعرب المغربية الى أقطاب ورءوس يرجع أمرهم الى رئيس على رؤسائهم [2] وقطب لعُرَفائهم من كبار القبائل المرينية يمتّ الى ملك المغرب بنسب

والعمائم تقلّ في زي أهل هـذه الحضرة إلاّ ما شذّ في شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم والجندِ الغربيّ منهم

وسلاح جمهورهم العصيُّ الطويلة المثنّاة بعصي صِغار ذات عرًى في أوساطها تُدفع بالأنامل عند قذفها تسمّى بالأمداس . وقسيّ الفرنجة يُحملون على التدرّب بها على الايام

ومبانيهم متوسّطة ، وأعيادهم حسنة مائلة الى الاقتصاد ، والغناء بمدينتهم فاشٍ حتى بالدكاكين التي تجمع كثيراً من الأحداث

وقوتهم الغالب البُرُّ الطيّب عامةً ، وربما اقتات في فصل الشتاء الضعفةُ والفعلةالذرةَ العذبة أمثلَ أصناف القطاني [3] الطيّبة . وفواكههم رَغْدة ، والعنب بحر لا نافة كرومه التي ينالها الخروجُ على أربعة عشر ألفاً لهذا العهد . وفواكههم اليابسة عامةَ العام متعددة : يدّخرون العنب سليماً من الفساد الى ثلثي العام ، الى غيره من التين والزبيب والتفاح والرمّان والقسطل والبلّوط والجوز واللوز ،

(١) في نسخة الاسكوريال « المرهفة »
(٢) في المراكشية « لرؤسائهم »
(٣) القطاني جمع قطنية وهي مايدخر في البيت من الحبوب

الى غير ذلك مما لا ينقطع مَدَدُه الا بفصل يزهد (١) في استعماله

ومَرْفهم فضة خالصة وذهب إبريز طيب محفوظ لا تفضل سكتَهم سكة

وعادة أهل هذه المدينة الانتقال الى حِلال العصير أوان إدراكه بما تشتمل عليه دورهم ، والبروز الى الفحوص (٢) بأولادهم وعيالهم ، معوّلين على شهامتهم وأسلحتهم على كثب عدوّهم ، واتصال أبصارهم بحدود أرضه

وحَلْيُهم في القلائد والدمالج والخلاخيل والشنوفِ الذهبُ الخالص الى هذا العهد في أُلي الجدة واللُجَينُ في كثير من آلات الرجلين فيمن عداهم والأحجار النفيسة من الياقوت والزبرجد والزمرّد ونفيس الجوهر كثيرٌ فيمن ترفّع من طبقاتهم المستندة الى ظلّ دولة أو أعرق أصالة موفورة

وحريمهم حريمٌ جميل موصوف باعتدال السِمَن (٣) وتنعّم الجسوم واسترسال الشعور ونقاء الثغور وطيب الشذا وخفّة الحركات ونُبل الكلام وحُسن المحاورة ، إلا أن الطولَ يندُر فيهنّ . وقد بلغن من التفنّن في الزينة لهذا العهد ، والمظاهرة بين المصبغات ، والتنافس فى الذهبيات والديباجيات ، والتماجن في أشكال الحلي الى غاية بعيدة

(١) في المراكشية « يزهر »
(٢) انظر هامش ص ١٨
(٣) في نسخة الاسكوريال « السحن »

القسم الخامس

﴿ في نَسَق الدُّوَل ، واتصال الأواخر منها بالأُوَل ﴾

ــ﴿ أمير المسلمين أبو عبد الله محمد بن يوسف ﴾ــ

ابن محمد بن احمد بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي (١) الأنصاري سلطان الأندلس ودائلها وجذم الامراء النصريين بهـا ، يلقب بالغالب بالله

نشأ بأرجونة من كنبانية قرطبة أطيب البلاد مدرة وأوفرها غلة في ظل نعمة وعلاج فلاحة وبين يدي نجدة وشهرة ، بحيث اقتضى ذلك أن نبض له شريان طلبِ الملك وانطوت أفكاره على تأميل الأمر والرياسة ،ورآه مرتادو أكفاء الدُوَل أهلاً فقدحوا رغبته وأثاروا طمعه

﴿ حاله ﴾

كان هذا السلطان آية من آيات الله في السذاجة والسلامةوالجَهْوَرية جنديًا ثغريًا شهمًا أيّداً عظيم التجلد رافضًا للدَعة والراحة مؤثراً للقشَف والاجتزاء باليسير متبلّغًا بالقليل بعيداً من التصنع جافي السلاح شديد الحزم موهوب الاقدام عظيم التشمير محتقراً للعظيمة مقرّبًا لصنفه مصطنعاً لأهل بيته فظًا في طلب حقه مباشراً للحرب بنفسه تتغالى الُحـكاة في موقع سلاحه وزنة دبّوزه . يخصف النعل ويلبس الخشن ويؤثر التبدّي ويستشعر الجدّ في أموره .

(١) في نسخة الاسكوريال « قيس بن عقيل الخزرجي »

وسعد بيوم الجمعة اذ كان فيه تملكه مدينةَ جيّان ثم حضرة الملك غَرناطة ، وقيل ويومُ قيامه . فشرع به الصدقة الجارية على ضعفاء أهل الحضرة وزَمْنام الى اليوم

وتملك اشبيلية وقرطبة برهة يسيرة ، ثم خرجتا عن نظره في خبر طويل

ولما تمّ له تملك الحضرة اضطُر الى المال فعظم على العمّال ضغطه ، وابتنى حصنَ « الحمراء » وجلب له الماء وسكنه وباشر بنفسه الحسبانات فتوفّر ماله ، وغصّت بالصامت خزائنه ، وعقد السلم الكبيرة ، وتهنّأ أمره ، وأمكنه الاستعداد : فأفم الاهراء ، وملأ بطن الجبل المتّصل بمعقله حبوباً مختلفة ، وخزائن دُوره مالاً وسلاحاً ، وأواريه (١) ظهراً وكُراعاً . فوجد فائدة استعداده ، ولجأ الى ما ادّخره من عتاده

﴿ سيرته ﴾

تظاهر لأوّل أمره بطاعة الملوك بالعدوة وإفريقية ، فخطب لهم زمانا يسيراً ، وتوصّل بسبب ذلك الى امداد منهم بمال واعانة . ولقبل ما افتتح أمره بالدعاء للمستنصر العباسي ببغداد حاذياً حذو سميّه ابن هود للهج العامة في وقته بتقلد تلك الدعوة

من بالعراق لقد أبعدت مرماك

الى أن نزع عن ذلك كله (٢) وكان يعقد للناس مجلساً عاماً يومين في كل أسبوع ترتفع اليه الظَلامات ويُشافهه طُلاّب الحاجات وينشده الشعراء وتدخل اليه الوفود ويشاور أرباب النصائح في مجلس يحضر به أعيان الحضرة

(١) جمع الآري وهو محبس الدابة (الاصطبل)

(٢) في المرا كشية «الى ان نزع عن دار ملكه»

وقضاة الجماعة وأُلو الرتب النبيهة في الخدمة يفتتح بقراءة أحاديث من الصحيحين ويختم بأعشار من القرآن العظيم (١) . ثم ينتقل الى مجلس خاص ينظر فيه في أموره فيصرف كل قصة (٢) الى من يليق به النظر فيها ويوا كل في العشيات خاصة من قرابته (٣) ومن يليهم من نبهاء القواد

﴿ أولاده ﴾

أعقب ثلاثة من الذكور : محمداً وليّ عهده ، وأمير المسلمين على أثره ، والأميرين فرجاً ويوسف تُوُفيا على حياته

﴿ وزراؤه ﴾

وَزَر له جماعة من الوزراء الجلّة . منهم الوزير أبو مروان عبد الملك بن يوسف بن صنانيد زعيم قاعدة جيّان ، وهو الذي أمكنه من ناصيتها

ومنهم علي بن ابراهيم الشيباني من وجوه أهل غَرناطة أَزْديّ النسب فاضل متخصص

ثم ابنه محمد بعده من أُلي الدمائة والوقار

ومنهم القائد الرئيس أبو عبد الله محمد بن محمد بن الرُميميّ . ولأبيه الظهور بمدينة المرية

ومنهم أبو يحيى بن الكاتب من أهل حضرته وأرباب النعم

واستوزر غيرهم ممن لم تنهض به الشهرة ولم تفسح له المَدّة

(١) لايزال الى اليوم من عادة سلاطين المغرب الاقصى ان تقرأ في مجالسهم الكتب الستة في الحديث في رجب وشعبان ورمضان وزادوا في هذه السنة عليها مسند السلطان محمد بن عبد الله العلوي من سلاطين المغرب السلفيين أفادني ذلك الصديق الفاضل السيد محمد المكي الناصري

(٢) القصة ما يرفع الى السلطان من عرائض الرعية ورسائل أرباب المصالح

(٣) في نسخة الاسكوريال « قرابتهم »

﴿ كُتّابه ﴾

كتب له جِلّة كالكاتب المحدّث الشهير أبي الحسن على بن محمد بن علي بن هَيْضم الرُّعَيني شُهر بنسبه

والكاتبِ الشهير أبي بكر بن خطّاب

والكاتب أبي عمر يوسف بن محمد بن محمد بن سعيد اليَحْصُبي اللوشي

﴿ قضاته ﴾

وليَ له قضاء الجماعة جِلّةٌ :

منهم القاضي الشهير النظّار أبو عامر يحيى بن عبد الرحمن بن ربيع الاشعري من جلّة الاندلس بيتاً ومنصباً

ثم الفقيه الجليل القاضي أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن محمد بن عبد الجليل ابن غالب الانصاري الخزرجي

ثم الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن محمد بن ابراهيم بن عبد السلام التميمي . وهذا الرجل عم أخي والدي لأمه ، أحد قضاة العدل

ثم القاضي العدل أبو عبد الله محمد بن عياض بن محمد بن عياض بن موسى اليحصبي حفيد القاضي أبي الفضل عياض من أهل الورع والجزالة والتصميم في الحق لا تأخذه في الله لومة لائم

ثم القاضي الحسيب أبو عبد الله بن أضحى . وبيته شهير ولم تطل مدّته

ثم القاضي العالم أبو القاسم عبد الله بن أبي عامر بن يحيى (1) ابن عبد الرحمن ابن أحمد بن عبد الرحمن بن ربيع الاشعري

(1) في المراكشية « أبي عامر يحيى »

ثم القاضي أبو بكر محمد بن فتح بن علي الأشبيلي الملقب بالاشبرون . وهو آخر قضاته

﴿ الملوك على عهده ﴾

بوطن المغرب ثم بمرا كش : المأمون إدريس من بني عبد المؤمن بن علي مزاحماً ليحيى بن الناصر بن المنصور منهم فارّاً أمامه معتصما بالجبل . ولما توفي المأمون ولي ولدُه الرشيد في أول سنة ثلاثين وستمائة ، وهو أبو محمد عبد الواحد . وخاطبه مبايعاً وداعياً ومُتاحفاً ووصله امداده ، وتوفي عن عشر من السنين

ووليَ أخوه أبو الحسن علي بن ادريس الملقّب بالسعيد وقُتل بظاهر تلمسان سنة ست وأربعين وستمائة

وولي أبو حفص عمر بن اسحاق المرتضى الى أن قتله ادريس الواثق أبو دبوس في أوائل عام خمسة وستين

وولي بعده يسيراً واستولى على مرا كش ملكُ بني مَرِين فتعاقب منهم على عهده ملوك جلّة ، منهم الأمير عثمان وأخوه محو وأخوهما أبو يحيى بنو عبد الحق ابن محيو واستقر الملك في أبي أملاكهم أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق بن محيو الى آخر أيامه

وبتلمسان : يغمراسن بن زيان أوّل ملوكهم ، وتقدمتْه امرأة أخيه قبله . ولكن يغمراسن حاز الشهرة واستحقّ الذكر

وبتونس : الأمير أبو زكرياء يحيي بن عبد الواحد بن أبي حفص ، وقد مرّ ذكره ، وخاطبه السلطان والتمس رِفْدَه وحصل على اعانته . ولما توفي ولي ولده بعده أبو عبد الله المستنصر بالله ، واستمرت أيامه مساوقة الى أيام السلطان ،

الى أن توفي بعده على أيام ولده عام أربعة وسبعين وستمائة

ومن ملوك النصارى بقشتالة : فراندة بن ألفونش بن شانجه الانبرطور . وفراندة هذا هو الطاغية الذي ملك قرطبة واشبيلية . ولما هلك ولي بعده ألفونش ولدُه ثلاثا وثلاثين سنة واستمرّ ملكه مدة ولايته وصدراً من دولة ولده بعده

وبِرَغون : جايمش بن بِيطْرُه بن ألفونش قُمْطُ برشلونة . وجايمش هذا هو الذي أخذ مدينة بلنسية وصيّرها دار ملكه من يدي أبي جميل زيان ابن مرذنيش

﴿ بعض أخباره ﴾

قام بدعوته ابن خالد جدّ بني خالد بغرناطة ، واستدعاه وهو بجيّان فبادر اليها في أخريات رمضان من عام خمسة وثلاثين وستمائة ، بعد أن بعث اليه الملأ من أهلها ببيعتهم مع رجلين من مشيختهم أبي بكر بن الكاتب وأبي جعفر التيرولي . قال ابن عذاري : أقبل وما زِيُّه بفاخر ، ونزل عشيّ اليوم الذي وصل فيه بخارج غرناطة على أن يدخلها من الغد ، ثم بدا له فدخلها غروب الشمس آخذاً بالحزم . وحدّث أبو محمد البسطي قال : عاينتُه يوم دخوله ، عليه شايةُ مَلْفٍ [1] مضلعة أكتافها ممزقة . وعند ما نزل بباب جامع القصبة كان مؤذّن المغرب في الحَيْعَلة وإمامه يومئذ أبو المجد المرادي ولم يحضر الامام فدفع الأشياخُ السلطانَ الى المحراب فصلى بهم على هيئته تلك بفاتحة الكتاب و « إذا جاء نصرُ الله والفتح » في الأولى و « قل هو الله أحدٌ » في الثانية . ثم دخل قصر باديس والشمع بين يديه

(١) جوخ

وفي سنة ثلاث وأربعين صالح طاغية الروم وعقد معه السلم الممتدّة الأمَد ، وأوقع قبلُ بالعدوّ الراتب تُجاه باب حضرته المتحصن بحصن بلّيانُش على بريد من الحضرة ، وكان الفتح به عظيماً . ثم حالفه الصنع بما يضيق المجال عن استيفائه

وفي حدود اثنين وستين وستمائة عقد البيعة لوليّ عهده ، واستدعى القبائل للجهاد

مولده : عام أحد وتسعين وخمسمائة بأرجونة في عام الأرك

وفاته : في منتصف جمادى الثانية من عام أحد وسبعين وستمائة

ورد عليه وقد أسنّ جملةٌ من كبار الزعماء يقودون جيشاً خشناً من أتباعهم، فبرز الى لقائهم بظاهر الحضرة . ولما كرّ آيباً الى قصره سقط ببعض طريقه وقاءه مُرّة خضراء . وأُركب وردفه بعض كبار مماليكه يُدعى صابراً الكبير ، وكانت وفاته ليلة الجمعة التاسع والعشرين لجمادى الثانية المذكورة . ودفن بالمقبرة الجامعة العتيقة بسَنَام السبيكة ، وعلى قبره اليوم منقوشاً في الرخام :

« هذا قبر السلطان الأعلى . عزّ الاسلام ، جمال الأنام ، فخر الليالي والايام ، غياث الامة ، غيث الرحمة ، قطب الملّة ، نور الشريعة ، حامي السنّة ، سيف الحقّ ، كافل الخلق ، أسد الهيجاء ، حِمام الاعداء ، قِوام الأمور ، ضابط الثغور ، كاسر الجيوش ، قامع الطغاة ، قاهر الكفرة والبغاة ، أمير المؤمنين ، عَلَم المهتدين ، قدوة المتقين ، عصمة الدين ، شرف الملوك والسلاطين ، الغالب بالله ، المجاهد في سبيل الله ، أبو عبد الله محمد بن يوسف ابن نصر الانصارى ، رفعه الله الى أعلى عِليّين وألحقه بالذين أنعم عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين . وُلد رضي الله عنه وآتاه رحمةً من لدنه عامَ أحد وتسعين وخمسمائة . وكانت وفاته يوم الجمعة بعد صلاة العصر التاسع والعشرين لشهر جمادى الآخرة عام أحد وسبعين وستمائة . فسبحان من

لا يفنى سلطانه ولا يبيد ملكه ولا ينقضي زمانه لا إله إلا هو الرحمن الرحيم

هذا محلُّ العلى والمجد والكرم قبر الامام الهمام الطاهر العلَم
لله ما ضمّ هذا اللحدُ من شرف جمّ ومن شيم عُلوية الهمم
فالبأس والجود مانحوي صفائحه لا بأسُ عنترة ولا ندى هَرِم
مغنى الكرامة والرضوان يعمره فخر الملوك الكريم الذات والشيم
مقامه في كلا يومَي ندًى ووغيِ كالغيث في المحل أو كالليث في الأجم
مآثر تليت آثارُها سُوَراً تُقَرّ بالحق فيها جملة الأمم
كأنه لم يسر في جحفل لَجَب تضيق عنه بلاد العرب والعجم
ولم يغادِ العدى منه ببادرة يفترّ منها الهدى عن ثغر مبتسم
ولم يجهز لهم خيلاً مضمرة لا تشرب الماء الا من قليب دم
ولم يُقم حُكم عدل في مسايسة تأوي رعيتُه منه الى حرم
مَن كان يجهل ما أولاه من نعم وما حماه لدين الله من حُرَم
فتلك آثاره في كل مكرُمة أبدى وأوضحُ من نار على علم
لازال تهمي على قبر تضمنه سحائبُ الرحمة الوكّافةُ الديَمَ »

* * *

أمير المسلمين محمد بن محمد بن يوسف بن نصر

وَلَدُ المترجَم به ، ثاني الملوك من بني نصر وعظيمُهم وأساسُ أمرهم وفحل جماعتهم

﴿ حاله ﴾

من كتاب ﴿ طرفة العصر ﴾ من تأليفنا :

كان هذا السلطانُ أوحدَ الملوك جلالةً وصَرامةً وحزماً ، ممهد الدولة الذي وضع ألقاب خدمتها وقدَّر مراتبها واستجاد أبطالها وأقام رسوم الملك فيها واستدرّ جبايتها مستظهراً على ذلك بسَعَة الذرع وأصالة السياسة ورَصانة العقل وشدة الأَسْر ووفور الدهاء وطول الحنكة وغلّوه التجربة ، مليح الصورة تام الخَلق بعيد الهمة كريم الخُلق عظيم الصبر كثير الأناة

قام بالأمر بعد أبيه وباشره مباشرة الوزير أيام حياته فجرى على سَنن من اصطناع أجناسه ومداراة عدوه واجراء صدقاته ، وأربى عليه بخلالٍ : منها براعة الخط وحُسن التوقيع وإيثار العلماء : من الأطباء والمنجمين والحكماء والكتاب والشعراء ، وقرض الأبيات من الشعر وكثرة المُلَح وحرارة النادرة

وطما عليه بحرٌ من الفتنة لأول أمره وتكاثر المنتزون عليه والثوّار وارتجت الأندلس فثبت لزلزالها رابط الجأش ثابت المركز ، وبذل من الاحتيال والدهاء المكنوفين بجميل الصبر ما أظفره بخلو جوه ، وطال عمره وبعُد صيته واشتهر في الآفاق ذكره وعظمت غزواته . وسيمرّ ما يدل على جلالة قدره وعلوّ سلطانه

﴿ شعره وتوقيعه ﴾

وقفتُ على كثير من شعره ، وهو نمطٌ منحطٌ بالنسبة الى أعلام الشعراء ، ومستطرف من الملوك أمثاله والامراء . فمن ذلك قوله يخاطب وزيره (١) :

تذكرْ عزيزُ ليالٍ مضت ... واعطاءنا المالَ بالراحتين
وقد قصدتنا ملوك الجها ... ت ومالوا الينا من العدوتين
وإذ سأل السلم منا العدو ... ن فلم يحظَ الا بخُفَّيْ حُنين

(١) أبا سلطان عزيز بن علي بن عبد المنعم الداني

وألفيتُ بخطّ جدّي الاقرب ما نصه : « من شعر مولاي أمير المسلمين. أبي عبد الله ابن أمير المسلمين الغالب بالله من أبيات في الفخر :

أأمدُّ عيني للذي أنا كارهٌ من صاحبي أني لَعَينُ الظالم
لي زاجرٌ من نفس حرّ حظّرت(١) كرما إباحة محرم من حالم »

وتوقيعه يشذّ عن الاحصاء كثرةً ، وبأيدي الناس منه كثير ، مثلما وقّع به على رقعة شخص كان يطلب التصريف في بعض الشهادات المخزنية ويلحُّ فيها :

يموتُ على الشهادة وهو حي الهَي لا تُمته على الشهاده

وأطال الخطَّ عند لفظ « إلهَي » اشعاراً بالضراعة عند الدعاء والجدّ

وما وقّع به لمشتكي ضرر الجندي المنزَل بداره ، وقد قذفه بالتعرض لزوجه « يُخرَج هذا النازل النازل ، ولا يُعوَّض بشيء من المنازل »

﴿ بنوه ﴾

ثلاثة : وليُّ عهده وسميُّه الآتي ذكرُه بحول الله ، وفرجٌ تاليه المغتالُ أيام أخيه المذكور ، ونصرٌ الامير بعد أخيه المخلوع على يده

﴿ وزراؤه ﴾

كان وزيرَه الوزيرُ الجليل الفاضل أبو سلطان عزيز بن علي بن عبد المنعم الداني ـ منسوب الى بلدة دانية الشرق ـ وبيته معدود في بيوتات الأشراف من أهل صُقعِ الشرق أخلقُ الناس(٢) ـ زعموا ـ بوزارة هـذا السلطان ، لتقارب الشبه في السنّ والصورة وفضل الذات ، الى متانة الدين وصحة الطبع وجمال الرُواء . أغنى وحسنت وساطته ورفعت اليه المادح وطرّزت باسمه

(١) كذا بالمراكشية . وفي الاخرى « حذرت »
(٢) أي أجدرهم

الاوضاع واتصلت أيامه الى تمام أيام مستوزره ثم صدراً من أيام ولي عهده

﴿ كتابه ﴾

تولى له خطة الكتابة [١] والرياسة العليا لقلم الانشاء جملة:

منهم كاتب أبيه وابنُ كاتبه أبو بكر بن يوسف اللوشي اليَحْصُبي

ثم الاخَوان أبوا عليّ الحسن والحسين ابنا محمد بن يوسف بن سعيد اليحصبي اللوشي، سبق الحسنُ وتلاه الحسين، وكانا توأمين وعلى أحسن سَنن من فضل الاخوّة وكرم النفس، وبضاعتهما فى الأدب متوسطة الغرض، ووفاتهما متقاربة. ولهذا البيت اللوشي ببني نصر اختصاص لجوار وسابقة

ثم كتب له أبو القاسم محمد بن عابد الأنصاري أحد الشيوح وبقيّة الصدور الادباء. أقام كاتباً عنه مُدّةً الى أن أبرَمه انحطاطه في هوى نفسه وايثاره المعَاقرة. حتى لزعموا أنه قاء يوماً بين يديه، فأخّره عن رتبته وأقامه في عداد كتّابه وتحت رِفده. وفي ذلك قال من قصيدة:

أفي عادة الانصاف والعدل أن أُجفى ... لأن زعموا أني تحسَّيتها صِرفا

وتولى له كتابةَ الانشاء الفقيهُ المحدّث الأصيل أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم الرندي الوزير لولده، فاضطلع بها الى آخر دولته

﴿ قُضاته ﴾

تولَّى له خطّة القضاء قاضي أبيه أبو بكر محمد بن فتح بن عليّ الاشبيلي الملقب بالاشبرون بعد أن تقلّد له قبلُ [٢] خطة السوق فلقي سكران من الجند قد أفرط في القحة واشتدّ في العربدة وحمل على الناس فأفرجوا عنه، فاعترضه

(١) في نسخة الاسكوريال « الخطابة به »

(٢) في المرا كشية « تقلد قبل ذلك »

بنفسه وقبض عليه واستبصر في حدّه وبالغ في نكاله ، واشتهر ذلك عنه فجمع أمر الشرطة وخطة السوق ثم ولي القضاء فذهب أقصى مذاهب الصرامة إلى أن هلك

فتولّى خطة القضاء بعده الفقيه الفاضل القاضي العدل أبو عبد الله محمد بن محمد بن هشام من أهل ألش بحكاية غبطت السلطان به ودلّته على محله من العدل والفضل ، فاتصلت أيام قضائه الى تمام أيام مستقضيه ، رحمهما الله تعالى .

﴿ جهادُه ﴾

باشر رحمه الله الوقائع فانجلت ظلماتها عن صبح نصره ، وطُرّزت مواقفها بطرر جلادته وصبره . ففي شهر محرم من عام خمسة وتسعين وستمائة — على تَفِيئَةِ هلاك طاغية الروم [1] شانجه بن أذفونش — عاجلَ الكفرَ لحين الدهشة فحشد أهلَ الاندلس واستنفر المسلمين ، فاغتنم الدّاعية وتحرّك في جيش يجر الشوك والمدر ، ونازل مدينةَ قيجاطة ففتحها الله على يديه ، وتملّك بسببها جملة من الحصون الراجعة اليها ، وكان الفتحُ بذلك عظيما ، وأسكنها جيشاً من المسلمين وطائفة من الحامية فأشرقت العدوّ بريقه .

وفي صائفة عام تسعة وتسعين نازلَ مدينةِ القَبذاق [2] وأخذ بمخنقها وأضرم القتال حولها وهدّ النقبُ طائفةً من سورها بين يدي القتال فدخلها عنوة واعتصم أهلها بمعقلها الشهير واحيط بهم فخذلوا وزلزل الله أقدامهم فتملكها على حكمه ، وهي من جلالة الوضع وشهرة المنعة وخصب الساحة وطيب الماء والوصول الى أفلاذ فؤاد الكفر والاطّلاع على عوراته بحيث شهر . فكان تيسير

---

(١) أي على حين موته ، وبلا اضاعة وقت

(٢) من نواحي قرطبة

فتحها من غرائب الوجود وشواهد اللطف ، وذلك في صلاة الظهر من يوم الاحد الثامن لشهر شوال عام تسعة وتسعين وستمائة وأسكن بها رابطة من المسلمين وباشر العمل في خندقها بيده . رحمه الله

﴿ من كان على عهده من الملوك ﴾

من ملوك المسلمين * بالمغرب : السلطان الجليل الصالح المجاهد أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق وكان ملكاً صالحا ظاهر السذاجة سليم الصدر مخفوض الجناح لقومه شارعاً أبواب الدالّة [١] عليه منهم . أشبه بالشيوخ منه بالملوك في احتمال اللغط والاغضاء عن الجفوة والنداء بالكنية . وهو الذي استولى على ملك الموحدين واجتثّ شجرتهم من فوق الارض وورث سلطانهم واجتاز الى الاندلس كما تقدم مرّاتٍ ثلاثاً أو أزيد منها ، وغزا العدوّ وجرت بينه وبين السلطان المترجم به أمورٌ بين سلم ومناصبة ، وعتب وإعتاب . وتوفي بالجزيرة الخضراء في عنفوان وحشة بينه وبين هذا السلطان في محرّم من عام خمسة وثمانين وستمائة

وولي بعده السلطان المعظم البعيد الهمّة اقوي العزمة أبو يعقوب يوسف وجاز الى الأندلس على عهده واجتمع به بظاهر مَرْبلّة [٢] وتجدّد العهدُ وتأكد الوُدّ . ثم عادت الوحشة المفضية الى تغلب العدوّ على جزيرة طَريف فرضة المجاز الادنى ، واستمرّت أيام السلطان أبي يعقوب الى اخر مدّة السلطان المذكور ومدّة ولده من بعده

وبتلمسان : السلطان أبو يحيى يعمور [٣] بن زيان بن ثابت بن محمد بن بندوسن بن طاع الله بن علي بن يمل ، وهو أوحد زمانه جرأة وشهامة ودهاء

(١) كذا في المراكشية ، وفي الاخرى «الدولة»
(٢) ناحية من أعمال (تبرة) بالاندلس
(٣) في نسخة الاسكوريال « يغمور »

وجزالة وحزما ، مواقفه في الحرب شهيرة ، وكانت بينه وبين بني مرين وقائع كان عليه فيها الظهور ، وربما ندرت الممانعة ، وعلى ذلك فقوي الشكيمة ظاهر المنعة

ثم ولي بعده ولده عثمان الى تمام مدة السلطان المترجم به وبعضاً من دولة ولده

وبوطن إفريقية : الأمير الخليفة أبو عبد الله ابن الأمير أبي زكرياء بن أبي حفص الملقب بالمستنصر ، المثل المضروب في البأو [1] والأنفة وعظم الجبروتية وبعد الصيت ، الى أن هلك سنة أربع وسبعين وستمائة

ثم ولده الواثق بعده

ثم الامير أبو اسحاق ابن الامير أبي زكرياء المجتاز من الاندلس

ثم كانت دولة الداعي ابن أبي عمارة المتوثب على ملكهم

ثم دولة أبي حفص مستنقذها من يده ، وهو عمر بن أبي زكرياء يحيى بن عبد الواحد

ثم السلطان الخليفة الفاضل الميمون النقيبة أبو عبد الله محمد بن الواثق يحيى ابن المستنصر بالله أبي عبد الله ابن الامير أبي زكرياء

ومن ملوك النصارى * بقشتالة : ألفنش هرانده المجتمع له ملك قشتالة وليون ، المستولي هو وأبوه على اشبيلية وقرطبة ومرسية وغيرها . واتصلت أيام ألفنش بن فرانده الى أن ثار عليه ولده شانجة واقتضت الحال اجازة سلطان المغرب واستجاربه وكان من لقائه اياه بأحواز الصخرة من كورة تاكرنا ما هو معلوم . ثم هلك

وملك بعده ولده شانجه واتصلت ولايته مدة أيام السلطان وجرت بينهما خطوب الى أن هلك عام أربعة وتسعين وستمائة

(١) الكبر والفخر

وولي بعده ولده هرانده سبع عشرة سنة وصار الملك اليه وهو صبي صغير فتنفّس مخنق أهل الاندلس ، وغزا سلطانها وظهر الى آخر مدته

وبِرَغون : ألفونش بن جايمش بن بطرُه بن جايمش

ثم هلك وولي بعده ولدُه جايمش الدي تازل المرية على عهد نصرٍ ولدِه ، واستمرت أيامه حياتَه . وكان لا نظير له في الحزم والدهاء والقوّة

﴿ ومن الأحداث في أيّامه ﴾

تفاقم على عهده الشرُّ وأعيا داء الفتنة واقحتْ حربُ الرؤساء الأصهار من بني اشقليولة فمن دونهم . فكان بمدينة وادي آش الرئيسان أبو محمد وأبو حسن ، وبمالقة وقمارش الرئيس أبو محمد عبد الله ، وبقمارش أخيراً الرئيس أبو إسحاق . فأما الرئيس أبو محمد فهلك وقام بأمره ولدُه وابن أخت السلطان المذكور ، ثم خرج عنها في سبيل الانحراف والمنابذة الى ملكة ملكِ المغرب ، ثم تصيّر أمرها الى السلطان بعده على يد واليها من بني محلى . وأما الرئيسان فصابرا ومَرِنا على المقاطعة بوادي آش زمانًا طويلا ، وكان آخر أمرهما الخروج عن وادي آش الى ملك المغرب معوّضين بقصر كتامة

وفي أيامه جاز السلطان أميرُ المسلمين أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق الى الاندلس غازياً (١) ومجاهداً في سبيل الله في أوائل عام اثنين وسبعين وستمائة وقد فسد ما بين ابن سلطان الروم وبين الملك أبيه ، واغتنم المسلمون الغرّة واستدعى السلطان ملك المغرب المذكور ولحق به السلطان المترجم به وجمع مجلسه بينه وبين المنتزين عليه من قرابته وأجلت الحال عن وحشة

وفي العام بعده كانت الوقيعة بالزعيم الكبير من زعماء الروم المسمى ذُنُونُهْ (٢) واستئصال شأفته

(١) في نسخة الاسكوريال « عارماً » (٢) في المراكشية « دنونه » بدال مهملة

ثم عبر البحرَ ثانية بعد رجوعه الى العدوة واحتلّ بمدينة طريف في أوائل ربيع الأول عام سبعة وسبعين وستمائة ونازل اشبيلية ، وكان اجتماع السلطانين بظاهر قرطبة ، فاتصلت اليد وصلحت الضمائر ، ثم لم تلبث الحال أن استحالت الى الفساد ، فاستولى ملك المغرب على مالقة بخروج المنزي بها اليه يوم الأربعاء التاسع والعشرين لرمضان عام سبعة وتسعين وستمائة ، ثم رجعت الى ملكة السلطان بمداخلة من كانت لنظره اياه

وعلى عهده نازل طاغيةُ الروم الخضراءِ وأخذ بمخنّقها وأشرف على افتتاحها ، فدفع الله عنها ونفّس حصرها وأحان أجفان الروم لبحرها (١) وعلى أيدى الفئة القليلة من المسلمين فعظم الفتح وأسفر الليل وانجلت الشدّة في وسط شهر ربيع الاول من عام ثمانية وسبعين وستمائة

مولده : بغَرناطة عام ثلاثة وثلاثين وستمائة ، وتصيّر اليه الملك (٢)

وفاته : وفي ليلة الاحد ثامن شعبان من عام أحد وسبعمائة توفي على مصلاّه متوجّهًا لاداء فريضته على أتم الاحوال من الخشية والتأهّب رحمه الله . زعموا أن شرَقاً كان يعتاده لمادة كانت تنزل من دماغه . ودفن منفردا عن مدفن سلفه شرقيّ المسجد الاعظم في الجنان المتصل بدارهم . ثم ثُني بحافده السلطان أبي الوليد ، ثم عُزّز بثالث كريم من سلالته وهو السلطان أمير المسلمين أبو الحجاج ابنُ ابنِ بنته ، تغمد الله جميعهم بعفوه وشملهم بواسع مغفرته وفضله

أنشدنا شيخنا أبو الحسن بن الجياب رحمه الله قوله يرثيه ويهنىء وليّ العهد

(١) كذا بنسخة الاسكوريال ، وفي المراكشية « وأجاز أجفان الروم بحرها »

(٢) في هذا الموضع بياض بالمراكشية . وأما نسخة الاسكوريال فجاء فيها « وتصير اليه الملك يوم الاحد ثامن شعبان من عام أحد وسبعمائة » وهذا خطأ لانه تاريخ وفاته كما سيجيء . والمعقول أن يكون الملك تصير اليه عقب وفاة أبيه وكانت وفاة أبيه يوم الجمعة التاسع والعشرين لشهر جمادى الآخرة عام أحد وسبعين وستمائة

ولده بتقلد امره :

مُصابٌ جليل وصنعٌ جميلٌ ... وملك سعيدٌ وأجر جزيلٌ
فذاك يهيّج برحَ الاسى ... وهـذا يسكّن فرطَ الغليل
وكلُّ الانام له باهتٌ ... وكلُّ فؤاد صحيح عليل
فمذ غاض بحر الندى لم تزل ... بحارُ الدموع عليـه تسيل
وحقٌ لاجفاننا أن تصو ... ب وحقٌ لاجسادنا أن تحول
لئن ساءنا خطبُ ذاك المصا ... ب لقد سرّه وشكُ ذاك الرحيل
فمن قصره والى قصره ... فطابَ مُعرَسُه والمَقيل
تبدّل من نعمة تنقضي ... نعيماً مقيماً ونعم البديل
وعُوّض من زائل باقياً ... فما هو في نعمة لا تزول
فقل للمعادين موتوا أسى ... وقل للموالين كفّوا العويل
فقد حل حيث اشتهى وارتقى ... بأعلى محلّ وأسنى مَقيل
وأولاه مولاه ما اختاره ... وقابل أعماله بالقبول
فما زال حزبُ الهدَى في اعتزا ... زٍ لديه وحزبُ الضلال الذليل
فطوراً يسير الى حربهم ... ففي كل فج دماء تسيل
وطوراً يجهّز جيشاً لهم ... ففي كل حَزْنٍ وسهْل رَعيل
وخلّف فينا الرضا العادل ال ... امام السعيد الهمام الجليل
به ألّف الله شمل الهدا ... ة وجدّد ربعَ المعالى المَحيل
ضللنا لفقد إمام الهُدى ... فكان لنا منه أهدى دليل
فقام لاعزاز دين الالا ... ه فكان له الله نعم الوكيل
فصبراً لخطب يهـد القوى ... وبشرى بهذا الفَعال الجميل

فلولاك يامُحيي المكرُما ت لما غادر الحزن منا العقول
ولولاك مَن للعلى بعده وللصفح عن مذنب مستقيل
ومَن للكفاح وسمر الرما ح ومن للحُسام اليمان الصقيل
ومن للعباد ومن للبلا د ومن للسماح وبذل الجزيل
ومن للايادي وقتل الاعادي ويوم الجلاد العريض الطويل
وقد جبر الله صَدْعَ القلو ب بجارٍ على نهج تلك السبيل
بغيث العُفاة وسم العدا ة وأسعد كافٍ وأسنى كفيل
فأشرقَت الارض من بعد ما تردّت بغيهب ذاك الافول
وألبس أندَلُسًا عدله جمالاً فليس لها من عَديل
فدم للانام كما تبتغي عليك من النصر ظلٌّ ظليل
وقابل جميعَ جيوش الاسى بصبر يردّ شباها فَليل
ولا زلتَ في ملكك المعتلي وفي نعم ضافيات الذيول

***

أمير المسلمين محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر

﴿ ثالث الملوك الكرام ، يُكنى أبا عبدالله ﴾

﴿ حاله ﴾

كان من أعاظم أهل بيته صيتاً وهمة ، أصيلَ المجد ، مليح الصورة ، عريق الامارة [1] ميمون النقيبة ، سعيد النصبة [2] ، عظيم الادراك . تهنأ العيش مدة أبيه ، وتملأ السياسة حياته ، وباشر الامور بين يديه ، فجاء نسيجَ وحده

(١) في نسخة الاسكوريال « غزير الامارة »
(٢) في المراكشية « سعيد القصبة »

ادراكاً ونُبلاً وفخامة وبأواً . ثم تولّى الامرَ بعد أبيه فأجراه على دَيدَنه وتقيل سيرته ، ونسج على منواله . وقد كان الدهر ضايقه في حصة الصحة ونقّصه ملاذّ الملك بزمانة سَدِكت بعينيه (١) لمواصلة السهر ومباشرة أنوار ضخام الشمع ، إذ كانت تتخذ له منه جُذوع في أجسادها مواقيت تخبر بانقضاء ساعات الليل ومضيّ المزيع

وعلى التزامه لـكِنّه وغيبوبته في كِسر بيته فقد خدمته السعود ، وأمّلت بابَه الفتوح ، وسالمته الملوك ، وكانت أيامه أعياداً

وكان يقرض الشعر ، ويصغي اليه ، ويثيب عليه : فيجيز الشعراء ويرضَخ الندماء (٢) ويعرف مقادير العلماء ويواكل الاشراف والرؤساء ، ضارباً في كل اصطلاح بسهم ، مليّاً من كل تجربة وحُنْكة ، حارّ النادرة ، حسن التوقيع ، مليح الخطّ ، يغلب على خلقه الفظاظةُ والقسوة

﴿ نادرته ﴾

أنشده يومَ قعوده على سرير أبيه ثاني يوم وفاته أحدُ الشعراء في غرَض التعزية والتهنئة قصيدة أولها :

على مَن تُنشر اليومَ البنودُ ونحت لواء مَن تسري الجنود (٣)

فقال له السلطان : على هذا الزّبلح الذى ترى قدّامك ـ يعني نفسه ـ فاستطرفها الناس ، وخجل الشاعر (٤)

---

(١) لزمتهما

(٢) يبذل لهم العطايا . يقال رضخ له من ماله يرضخ (بفتح العين فى الماضي والمضارع) رضخاً بمعنى أعطاه

(٣) بالمرا كشية « تمشي الجنود »

(٤) لم أجد تفسير « الزبلح » فى لسان العرب ولا فى القاموس وشرحه وليست الآن فى عامية المغرب ، ولعلها من عامية الاندلس

﴿ شعره ﴾

كان شعره مستطرفاً من مثله . لا ، بل يفضُل به الكثير ممن ينتحل من الملوك الشعرَ . وقفت على مجموع منه ألّفه بعض خُدّامه . فمن بعض المطولات :

واعدني وعداً وقد أخلفا ... أقلُّ شيء في الملاح الوفا
وحال عن عهدي ولم يرعَهُ ... ماضرَّه لو أنه أنصفا
مابالها لم تتعطّف على ... صبٍّ لها مازال مستعطفا
يستطلع الانباء من نحوها ... ويرقب البرق اذا ما هفا
خفيت سقماً عن عيان الورى ... وبان حبّي بعد ماقد خفى
لله كم من ليلة بتُّها ... أدير من ذاك اللمى قرقفا
متعتى بالوصل منها وما ... أخلفت عهدا خفت أن يخلفا

ومنها :

ملّكتِكِ القلب واني امرؤ ... عليَّ مُلك الارض قد وقّفا
أوامري في الناس مسموعة ... وليس مني في الورى أشرفا
يرهف سيفي في الوغى مُصلتاً ... ويُتقى عزمي اذا أرهفا
وتُرتجى يمناي يومَ الندى ... تخالها السحبَ غدَت وُكفا
نحن ملوك الارض مَن مثلنا ... حزنا تَليدَ الفخر والمطرفا
نُخاف إقداماً ونُرجى ندًى ... لله ما أرجى وما أخوفا
لي راية في الحرب كم غادرت ... ربع العِدى قاعاً بها صفصفا
ياليتَ شعري والمنى جمّةٌ ... والدهر يوماً قد يُرى منصفا
هل نرتجي اليوم تدانيكم ... أو يصبح الدهر به مسعفا

﴿ مناقبه ﴾

وأعظم مناقبه ابتناء المسجد الاعظم بالحمراء من غَرناطة على ماهو عليه من الظرف والتنجيد والترقيش من فخامة العمد واحكام أثوار الفضة [1] وابداع ثرياتها . ووقف عليه الحمّام بازائه . وأنفق فيه مال جزية أغرمها من يليه من الكفار فَدَوْا بها زرعاً حمز جيشاً صائفة لانتسافه [2] وقد أهمتهم فتنة فظفر بها منقبةً يتيمة ومعلوة فذّة فاق بها من تقدمه أو تأخره من قومه

﴿ جهاده ﴾

أغزى الجيشَ لأول أمره مدينة المظر فاستولى عليها عنوة وتملّك من اشتملت عليه ، ومن جملتهم [3] العلجة صاحبة المدينة من أفراد عقائل الروم ، فقدمت الحضرة في جملة من السبي : نبيهة المركب ، ظاهرة الملبس ، رائعة الجمال خصَّ بها ملك المغرب فاتخذها ـ زعموا ـ لنفسه . وكان هذا الفتح عظيما والصيت لاجله بعيداً

﴿ وزراؤه ﴾

أبقى على خطّة الوزارة وزيرَ أبيه ، وهو الشيخ الوزير أبو سلطان عزيز بن علي بن عبد المنعم الداني متبرّماً بحياته . وتمادّى أمره برهة ثم أنهض للوزارة كاتبه وكاتب أبيه الوزير الصدر الحاجّ المحدّث أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن ابن ابراهيم بن الحكيم اللخمي الرُنْدي ـ وقد مر ذكره ـ في ذي قعدة من عام

(١) الانوار : الاواني

(٢) كذا في نسخة الاسكوريال ، وفي المراكشية « لانتسافه »

(٣) في المراكشية «ومنهم»

ثلاثة وسبعمائة وصرف اليه تدبيره وألقي في يده أزمة الملك فلم يلبث أن تغلب على أمره وتقلد كافة شئونه

﴿ كتّابه ﴾

استقلّ برياسة القلم الاعلى وزيرُه ـ وكان كتّابه[1] جملةً تباهي بهم الدول أدباً وتفنناً وفضلا وظَرفاً كشيخنا تلوه ولي الرتبة الكتابية بعده وفاعل الخطة على أثره ، وغيره ممن يشار اليه في تضاعيف الأسماء ، كالشيخ الفقيه القاضي أبي بكر بن شبرين ، والوزير الكاتب أبي عبد الله بن عاصم ، والفقيه الاديب أبي اسحاق بن جابر ؛ والوزير الشاعر المفلق أبي عبد الله بن اللوشي ، والرئيس أبي محمد الحضرمي ، والقاضي أبي الحجاج الطرطوشى ، والشاعر المكثر أبي العباس بن القراق

﴿ قضاته ﴾

استمرّت ولاية قاضي أبيه الشيخ الفقيه أبي عبد الله محمد بن محمد بن هشام الالشي قاضي العدل وخاتمة أُلي الفضل الى أن توفي عام أربعة وسبعمائة ، وتولّى له القضاء القاضي أبو جعفر احمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن احمد القرشي المنبز بابن فركون

﴿ مَن كان من الملوك على عهده ﴾

وأوّل ذلك بفاس : كان ملكاً بها على عهده السلطان الرفيع القدر ، السامي الخطر ، المرهوب الشبا ، المستولي في العزّ وبُعد الصيت على المدى ، أبو يعقوب يوسف بن يعقوب المنصور بن عبد الحق ، وهو الذي وطّد الدولة وجبا الاموال

(١) في المراكشية «بابه»

العريضة ، واستأصل من يتّقي شوكته من القرابة وغيرهم . وجاز الى الاندلس في أيام أبيه وبعده غازيًا ، ثم حاصر تلمسان وهلك عليهـا في أوائل ذي قعدة عام ستة وسبعمائة

ثم صار الملك [١] الى حافده أبي ثابت عامر ابن الامير أبي عامر عبد الله بن يوسف بن يعقوب بعد اختلاف وقع ونزاع انجلى الأمرُ فيه عن قتل جماعة من أكابرهم ، منهم الاميرُ أبو يحيى ابن السلطان أبي يوسف والأمير أبو سالم ابن السلطـان أبي يعقوب . واستمرّ الامر بالسلطان أبي ثابت الى شهر صفر عام ثمانية وسبعمائة .

وصار الأمر بعده الى أخيه السلطان أبي الربيع سليمان تمام ملكه وصدراً من دولة أخيه نصر بعده حسبما يذكر

وبتلمسان : الامير أبو سعيد عثمان بن يغمراسن . ثم أخوه [أبو زيان . ثم أبوه [٢]] الامير أبو حمو . ثم ولده الامير أبو تاشفين عبد الرحمن الى آخر مدته

وبتونس : كان أميراً بتونس على عهده السلطان الفاضل أبو عبد الله محمد ابن الواثق بالله يحيى بن المستنصر أبي عبد الله ابن الامير أبي زكريا بن أبي حفص ، من أُلي العفّة والتؤُدة والفضل والحشمة والعقـل والعناية بالصالحين ، اختصّ منهم بأبي محمد المرجاني فظهرت عليه بركته الى أن هلك في ربيع الآخر عام تسعة وسبعمائة . ووقعت بينه وبين هـذا الامير المترجم به من بني نصر المراسلة والمهاداة ، وفي ذلك يقول شاعره من قصيدة مطوّلة في المدح :

ولتفتخر أندلس أنهـا ... بعـدله المشهور دار القرار
بسعده دانت لها [٣] تونس ... فاعتمدتها بالهدايا الكبار

(١) في المراكشية « الامر »
(٢) ما بين هاتين العلامتين [ ] في نسخة الاسكوريال دون المراكشية
(٣) كذا بالمراكشية وفي نسخة الاسكوريال « له »

وأتحفت قولا وفعلا بما قد أبس الاعداء ثوب الصغار
وخلدته أثراً باقيا مشتهراً في الارض أي اشتهار

وبقشتالة : كان على عهده من ملوك قشتالة هراندة بن شانجة بن ألفونش ابن هراندة . هلك أبوه كما تقدّم وتركه صغيراً مكفولاً على عادتهم ، فتنفس المخنق ، وانعقدت السلم ، واتصل الامان ، مدّة أيامه . وهلك في دولة أخيه

وبرغون : الطاغية جايمش بن الهونشة (١) بن بطره

﴿ بعض الاحداث ﴾

في عام ثلاثة وسبعمائة ثار عليه قريبه الرئيس أبو الحجاج بن نصر بمدينة وادي آش ، وبادره فتغلّب عليه فقتله صبراً بيد أحد بني عمه

وفي شوال من عام خمسة وسبعمائة قرعَ الاسماع النبأ الغريب من تملكه مدينة سبتة وحصولها في قبضة ملكه وانتزاعها من يدي رئيسها أبي طالب عبد الله ابن الرئيس أبي القاسم بن أبي العباس العزفي ، فاستولى عليها واستأصل ماكان لرؤسائها من الخزائن والذخائر ونقلهم ـ وهم عدّه ـ الى حضرته ، وكان ذلك غرّة المحرّم من العام بعده ودخلوا عليه وقد احتمل الملك واستركب في الاهبة الجندُ ، فلثموا أطرافه واستعطفته شعراؤهم بالمنظوم من القول وخطباؤهم بالمنثور منه . فأنشد يومئذ الرئيس أبو العباس أخوهم :

اكم حيّ من فؤادي غير مقروبِ فضائم في هواكم كل تأنيب
إن كان ما ساءني مما يسركم فعذّبوا ، فقد استعذبتُ تعذيبي

قصيدة شهيرة . فطأمن روعهم ، وسكّن جأشهم ، وأسكنهم في جواره ، وأجرى عليهم الارزاق الهلالية ، وتفقدهم في الفصول ، الى أن كان من أمرهم ماهو معلوم

(١) كذا في نسخة الاسكوريال ، وفي المراكشية « الهونش »

﴿ خلعه ﴾

وفي يوم عيد الفطر من عام ثمانية وسبعمائة تمت الحيلة عليه وأحيط به ، وهو زمِنٌ مصاب بعينه ، مقعَد في كنّه . داخلت طائفة من كبار الدولة [١] أخاه فنتكت بوزيره أبي عبد الله بن الحكيم ونصبت للناس أخاه المذكور نصراً وكُبس منزل السلطان فأُحيط به وجُعل عليه الحَرَس وتُسُومع بالكائنة فوقع البهت ، وسال من الغوغاء البحر ، فتعلّقوا بالحمراء يسألون عن الحادثة فشغلوا بأنهاب دور الوزير الكائنة بالربض وبها من مال وذخيرة وكتب وأثواب وسلاح وفرش وآنية وخُرْثيّ [٢] ما يفوت الوصفَ ، فكان الفجع في اضاعته على المسلمين عظيما ، وانطلقت عليه الأيدي الخبيثة وفي آخر اليوم المذكور أُدخل على السلطان قوم من الفقهاء أشهدهم بخلع نفسه ، ونقل الى القصر المنسوب الى السيد بخارج الحضرة أقام به يسيراً ، ثم نقل الى مدينة المنكّب

﴿ وفاته ﴾

وفي أُخرَيات شهر جُمادَى الآخرة من عام عشرة وسبعمائة أصابت السلطانَ سكتة توقع منها موته ، بل شُك في حياته ، فوقع التفاوض الذي تمخّض عن التوحيه عن السلطان أبي عبد الله الى محلّ اعتقاله بالمنكّب ليعود له الأمر فكان ذلك ، وأسرع به الى غَرناطة في محفّة وكان حلوله بها في غرّة شهر رجب من العام المذكور . وأفاق أخوه من مرضه ولم يتمّ الامر ، فنقل من الدار التي كان بها . ثم شاعت وفاته أوائلَ شوّال من العام ، فذُكر أنه اغتيل تغريقاً في البركة بها لما تُوقع من عادية جواره ، ودفن بمقبرة السبيكة مدفن قومه وبجوار الغالب بالله جدّه ، ونوّه بجدثه ، وعليه مكتوب ما نصّه من جانب :

(١) في نسخة الاسكوريال « طائفة منهم من كبار الدولة »
(٢) متاع البيت

« هذا قبر السلطان الفاضل ، الامام العادل ، عَلَم الاتقياء ، أحد الملوك الصلحاء ، المُخْبِت(١) الأوّاه ، المجاهد في سبيل الله ، الرضيّ الأروع ، الاخشى لله الأخشع ، المراقب لله في السرّ والاعلان ، المعمور الجَنان بذكره واللسان ، السالك ـ في سياسة الخلق وإقامة الحق ـ منهجَ التقوى والرضوان ، كافل الامة بالكرامة والحنان ، الفاتح لها ـ بفضل سيرته وصدق سريرته ونور بصيرته ـ أبوابَ اليمن والامان ، المنيب الأوّاب ، العامل بكل ما يجده نوراً مبيناً يوم الحساب ، ذي الآثار السنية ، والاعمال الطاهرة العلية ، القائم في جهاد الكفّار بماضي العزم وخالص النية ، مقيم قسطاس العدل ، منير منهاج العلم والفضل ، حامي الذمار ، وناصر دين المصطفى المختار ، المقتدي بأجداده الانصار ، المتوسّل بما أسلفوه من أعمال البرّ والجهاد ورعاية البلاد والعباد الى الملك الغفّار ، أمير المسلمين وظهير المؤمنين وقامع المعتدين ، المنصور بفضل الله أبي عبد الله ابن أمير المسلمين السلطان الاعلى إمام الهدى غمام الندى محيي السنّة ومعزّ الملّة المجاهد في سبيل الله الناصر لدين الله أبي عبد الله ابن أمير المسلمين الغالب بالله أبي عبد الله بن يوسف بن نصر كرم الله مثواه ونعمه برضاه * ولد رضي الله عنه في يوم الاربعاء الثالث لشعبان المكرّم من عام خمسة وخمسين وستمائة وتوفي قدّس الله روحه وبرّد ضريحه ضَحوة يوم الاثنين الثالث لشوّال عام ثلاثة عشر وسبعمائة رفعه الله الى أعلى منازل أوليائه الابرار وألحقه بأئمة الحق الذين لهم عقبى الدار . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه ، وسلم تسليما »

ومن الجانب الآخر :

رضى الملك الأعلى يروح ويغتدي على قبر مولانا الامام المؤيَّدِ

(١) المطيع

مقرّ العلى والملك والبأس والندى ... فقدّس من مغنى كريم ومشهد
ومثوى الهدى والفضل والعدل والتقى ... فبورك في مثوى زكي ومَلْحَدِ
فيا عجباً طود الوقار جلالةً ... ثوى تحت أطباق الصفيح المنضّدِ
وواسطة العقد الكريم الذي له ... مآثر مجد بين مثنى وموحد
محمدٌ الأرضى سليلُ محمدٍ ... امام الهدى نجل الامام محمد
فيا نخبة الأملاك غير منازَع ... ويا عَلَم الأعلام غير مُفنَّد
بكتك بلادٌ كنت تحمي ثغورها ... بعزم أصيل أو برأي مسدَّد
وكم مَعْلَم للدين أوضحتَ رسمه ... بنى لك في الفردوس أرفعَ مَصعد
كأنك ما سُست البلاد وأهلها ... بسيرة ميمون النقيبة مهتد
كأنك ما قدتَ الجيوش الى العدى ... فصيَّرتهم نهبَ القنا المتقصّد (١)
وفتحت من أقطارهم كلَّ مبهم ... فتحت بها باب النعيم المخلَّد
كأنك ما أنفقت عمرك في الرضا ... بتجديد غزوٍ أو بتشييد مسجد
وانصاف مظلوم وتأمين خائف ... واصراخ مذعور وإسعاف مجتدِ
كأنك ما أحييت للحق سنّةً ... تجادل عنها بالحسام المهنّد
فان تجهل الدنيا عليك وأهلها ... فذاك ثواب الله يلقاك في غد
تعوّضت ذخراً من مقام خلافة ... مقام منيب خاشع متعبّد
وكل الورى من كان أو هو كائن ... صريع الردّى إن لم يجز فكأن قد
فلا زال جارا للرسول محمد ... بدار نعيم في رضا الله سرمد
وهذي القوافي قد وفيت بنظمها ... فياليت شعري هل تصيخ لمنشد

(١) في نسخة الاسكوريال « رهن القنا المتقصد »

أمير المسلمين نصر بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر

« الامير بالاندلس بعد أخيه وأبيه ، يُكنى أبا الجيوش »

حاله

كان فتى ملأ العيونَ حسناً وتمامَ صورة ، دمث الاخلاق ، ليّن العريكة ، عفيفًا ، مجبولاً (١) على طلب المدنة ، محباً في الخير وأهله ، آخذاً من صناعة التعديل (٢) بحظّ رغيب ، يخطّ التقاويم الحسنة والجداول الصحيحة الظريفة ويصنع الآلات العجيبة بيده ، اختص في ذلك الشيخ الامامَ أبا عبد الله بن الرقّام وحيد عصره فجاء وحيد دهره ظَرفا واحكاماً . وكان حسن العهد كثير الوفاء حمله الوفاء على اللجاج في أمر وزيره المطلوب بعزله على الاستهداف للخلع . تقدّم يوم خلع أخيه - يوم الفطر من عام ثمانية وسبعمائة - وسنُّه ثلاث وعشرون سنة فكان من تمام الخلق وجمال الصورة والتأنق في رفيع اللباس وملوكي البزّة آيةً من آيات خالقه ، واحتذى مرسوم (٣) أبيه وأخيه ، وأجرى الالقاب والعوائد لأوّل دولته . وكانت أيامه كما شاء الله أيام نحس مستمر شملت المسلمين فيها الازمةُ ، وأحاط بهم الذُعر وكَلَبُ العدوّ ، وسيمرّ من ذلك ما فيه الكفاية . وكان فتى أيّ فتى لو ساعده الجدّ ، والأمرُ لله من قبلُ ومن بعد

وزراء دولته

وَزَر له مقيمُ أمره ومُحكم التدبير على أخيه الوزيرُ القائد أبو بكر عتيق بن محمد بن المول الشهم النجد . وبيتُ بني مَول بقرطبة بيتُ اصالة . ولما تغلّب

(١) في المراكشية « محبوبا » (٢) علم الفلك

(٣) في المراكشية « واقتدى برسوم » وفي هامش نسخة الاسكوريال « واقتدى »

ابنُ هود اختفى بها أبوه أياماً ، فلما تملك السلطان الغالب بالله تلك البرهة خرج اليه وصحبه الى غرناطة ، فاتصلت قرباه بعقده على بنت الرئيس أبي جعفر المنبز بالفَجَلِب[1] ابن عم السلطان ، واشتد عضده ، ثم تأكدت القربى بعدُ بعقد مَولٍ أخي هذا الوزير على بنت الرئيس أبي الوليد اخت الرئيس أبي سعيد منجب هؤلاء الملوك الكرام * قام بأمره واضطلع باعباء سلطانه ، الى أن كان من تغلب أهل الدولة عليه وإخافة سلطانه منه ما أوجب صرفه الى المغرب في غرض الرسالة ، وأشير عليه في طريقه باقامته بالمغرب فكان صرفا حسناً

وتولّى الوزارة محمد بن علي بن عبد الله بن الحاج ، الميسّر لحلمه واجتثاث أصله وفرعه ، وكان خِبّاً داهية أعلم الناس بأخبار الروم وسيرهم وآثارهم ، فحدثت بين السلطان وأهل حضرته الوحشة بسببه

﴿ كتّابه ﴾

شيخنا أبو الحسن بن الجيّاب نسيجُ وحده الى آخر مدّته

﴿ قضاته ﴾

أقرّ على خطة القضاء بحضرته قاضيَ أخيه الشيخ الفقيه أبا جعفر بن القرشي المنبز بابن فركون وقد تقدّم ذكره[2]

﴿ مَن كان على عهده من الملوك ﴾

بالمغرب من ذلك : كان على عهده بالمغرب السلطان أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن أبي يعقوب يوسف بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق . تصيّر الامر اليه بعد وفاة أخيه السلطان أبي ثابت عامر باحواز طنجة في صفر عام ثمانية وسبعمائة . وكان مشكور الولاية . وفي دولته عادت سبتة الى الايالة المرينية . ثم

(١) بالمراكشية « بالمجلب » وتقدم مثله في ص ٢٥ (٢) ص ٥١

توفي بتازا في مستهلّ شهر رجب من عام عشرة وسبعمائة

وتولى الملك بعده عم أبيه السلطان الجليل الكبير خِدنُ العافية وولي السلامة وممهّد الدولة أبو سعيد عثمان بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق ، واستمرّت ولايته الى تمام أيام هذا الامير وكثير من أيام من بعده

وبتلمسان : الامير أبو حمو موسى بن عمران بن يغمراسن ، المثل السائر في الحزم والتيقظ والمشاحّة وصلابة الوجه وإحكام القِحّة والاغراب في السيرة . واستمرت ولايته الى عام ثمانية عشر وسبعمائة ، الى أن سطا به ولده عبد الرحمن أبو تاشفين

وبتونس : الامير الخليفة أبو عبد الله محمد بن يحيى بن المستنصر أبي عبد الله محمد بن الامير أبي زكرياء بن أبى حفص بن عبد الواحد . ثم توفي في شهر ربيع الآخر من عام تسعة وسبعمائة

فولي الامرَ قريبُه الاميرُ أبو بكر عبد الرحمن ابن الامير أبي يحيى زكرياء ابن الامير أبي زكرياء بن عبد الواحد بن أبي حفص . ونهض اليه من بجاية قريبه السلطان أبو البقاء خالد ابن الامير أبي زكرياء ابن الامير أبي اسحاق ابن الامير أبى زكرياء يحيى بن عبد الواحد ، والتقيا بأرض تونس ، فهُزم أبو بكر بن عبد الرحمن ونجا بنفسه فدخل بستانًا لبعض أهل الخدمة مختفيًا فيه ، فسُعي به الى أبي البقاء ، فجيء به اليه فأمر بعض القرابة بقتله صبراً ، وتمّ الأمر لأبى البقاء في رابع جُمادَى الاولى منه ، الى أن وصل[1] الشيخ أبو يحيى زكرياء ابن احمد المعروف باللحياني من المشرق وهو كبير آل أبي حفص إذ ذاك سنًّا وقدرا فأقام بأطرابُلُس وأنفذ الى تونس خاصته الشيخ أبا عبدالله المزدوري

(١) في نسخة الاسكوريال « دخل » . وفي هامشها « وصل » كما في متن المراكشية

محاربا لأبي البقاء وطالباً للامر ، وتم له الامر وخُلع أبو البقاء تاسع جمادى الاولى عام أحدعشر وسبعمائة . وتمّ الامر للشيخ أبي يحيي واعتقل أبو البقاء فلم يزل معتقلا الى أن توفي في شوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة ودفن بالجبانة المعروفة عندهم بالزّلاّج بضريحه (١) فيما تعرفنا بازاء ضريح المظلوم أبي بكر لا فاصل بينهما وعند الله تجتمع الخصومُ

واتصلت أيامُ الأمير أبي يحيى الى أن انقرضت مدةُ الأمير أبي الجيوش وقد تضمن الالماعَ ببعض ذلك الرجزُ من نظمنا (٢) ، فمنه فيما يختص بذكر ملوك المغرب في ذكر السلطان أبي يعقوب :

ثم تقضّى معظم الزمانِ مواصلاً حصر بني زيانِ
حتى أتى أهلَ تلمسانَ الفرج ونشقوا من جانب اللطف الأرج
لما ترقّى درج السعد درج فانفضّ ضيقُ الحصر عنها وانفرج
وابنُ ابنه وهو المسمى عامرا أصبح بعدُ ناهياً وآمراً
وكان ليثاً داميَ المخالب يقلّبُ (٣) الأمرَ بجدّ غالب
أباح بالسيف نفوساً عدّه فلم تطلْ في الملك منه المدّه
ومات حتف أنفه واخترُما ثم سليمانُ عليها قُدّما
أبو الربيع دهرُه ربيعُ يثني على سيرته الجميعُ
حتى اذا الملكُ سليمانُ قضى تصيّر الأمرُ لعثمانَ الرضا
فلاح نور السعد فيها وأضا ونُسيَ العهدُ الذي كان مضى

وفيما يختصّ ببني زيان بعد ذكر أبي زيان :

حتى اذا استوفى زمانَ سعده قام أبو حمو بها من بعده

(١) بالمراكشية « بضريحه » (٢) اسمه (رقم الحلل في نظم الدول)
(٣) بنسخة الاسكوريال « تقلّب »

وهو الذي سطا عليه ولدُه حتى انتهى على يدَيه أمدُه
وأخذ الله له بالثار وكل نظم فالى انتثار

وفيما يختص بآل أبي حفص بعد ذكر جملة في نسق :

ثم الأمير والشهيد خالد هيهاتَ ما في الدهر حيٌّ خالد
وزكرياء بها بعدُ ثوى ثم نوى الرحلةَ عنها والنوى
وحلّ بالشرق وبالشرق ثوى وربما فاز امرؤ بما نوى

ومن ملوك النصارى * بقشتالة : هرانده بن شانجه بن ألفونشه بن هرانده ابن شانجه . ونازل (١) على عهده الجزيرة الخضراء ثم أقلع عنها عن شروط وضريبة ، ثم نازل في أخريات أيامه حصن القبذاق وأدركه ألمُ الموت بظاهره فاحتُمل من المحلة (٢) الى جيان ، وبقيت المحلة منيخة على الحصن الى أن تُملك بعد موت الطاغية بعد أيام ثلاثة اذ كتم موته . ولموته حكاية غريبة تضمنها كتاب (طرفة العصر) من تأليفنا

وقام بعده بأمر النصرانية ولده الهونشه (٣) واستمرّت أيامه الى عاشوراء من عام خمسين وسبعمائة

وبرغون : جايمش بن بطرُه ، وهو الذي نازل على أيامه مدينة المرية وشهد (٤) حصارها ، وهزم جيش (٥) المسلمين بخارجها الى تمام أيامه وصدراً من أيام من بعده

(١) في المراكشية « ونزله »
(٢) المعسكر
(٣) في المراكشية « الهنشه » بلا واو
(٤) في نسخة الاسكوريال « وشد »
(٥) في المراكشية « جايمش »

﴿ بعضُ الاحداث في أيامه ﴾

نازل على أوّل أمره طاغيةُ قَشتالة الجزيرةَ الخضراء في الحادي والعشرين لصفر من عام تسعة وسبعمائة ، وأقام عليها الى أخريات شعبان من العام المذكور ، ثم أقلع عنها بعد ظهوره على جبل الفتح وفوز قِداحه به ، ونازل صاحبُ برجلونه مدينةَ المرية غرّة ربيع الأول من هذا العام وأخذ بمخنقها وتعرقت الظباء على خداش ، ووقعت على جيش المسلمين الناهد اليه وقعةٌ كبيرة واستمرّت المطاولة الى أخريات شعبان ، ونفّس الله الحصر وفرّج الكرب . وما كاد أهل الاندلس ينتشقون ريح العافية حتى نجم شهاب الفتنة ونشأت ريح الخلاف واستفسد وزيرُ الدولة ضمائر أهلها واستهدف الى رعيتها بايثار النصارى والصاغية الى العدوّ ، وأظهر الرئيس ابن عم الأب صاحب مالقة أبو سعيد بن اسماعيل صنو الغالب بالله تعالى الامتساك بما في يده والدعاء لنفسه وقدّم ولده الداثل الى طلب الملك وثار أهل الحضرة يوم الخامس والعشرين من رمضان هذا العام وأعلن منهم من أعلن بالخلاف ثم خانهم التدبير وخبطوا عشواء ونزل الحشم فلاذ الناس منهم بديارهم وبرز السلطان الى باب القلعة متقدّماً بالعفة عن الناس وفرّ الحاسرون عن القناع فلحقوا بالسلطان أبي الوليد بمالقة واستنهضوه الى الحركة وقصدِ الحضرة ، وأجابهم وتحرّك فأطاعته الحصون بطريقه واحتلّ خارجها صبيحة يوم الخميس السابع والعشرين لشوّال من العام ، فابتدره الناس من صائح ومشير بثوبه ومتطارح بنفسه ، فدخل البلد من ناحية ربض البيازين واستقرّ بالقصبة القدْما[1] نجاه الحمراء . وفي ظهر يوم السبت التاسع والعشرين

(١) بنسخة الاسكوريال « القديما » ، وسيأتي ذكرها في ص ٧٠

من الشهر كان دخوله دار الملك ، وانفصل السلطان نصر الى مدينة وادي آش موفى شرطه من الاستبداد بها وتعيين مال خاص وغير ذلك . ورحل ليلة الثلاثاء الثالث لذي قعدة واستمرت الحال بين حرب ومهادنة الى حين وفاته

﴿ وفاته ﴾

تُوفي رحمه الله ليلة الاربعاء سادس ذي قعدة من عام اثنين وعشرين وسبعمائة بوادي آش ، ودفن بجامع القصبة منها . ثم نقل في أول ذي حجة منه الى الحضرة وبرز السلطان والجمعُ الكثير من الناس وصُلي على سريره بالمصلى العيدي إثر صلاة العصر من يوم الخميس السادس من الشهر ، ووُوريَ بتربة جدّه من مقبرة السبيكة ، وكان يومه من الايام المشهودة . وعلى قبره :

« هذا قبر السلطان الرفيع المقدار ، الكريم البيت العظيم النجار ، سلالة الملوك الاعلام الاخيار ، الصريح النسب في صميم الامصار ، الملك الاوحد الذي له السَلَف العالي المنار ، في الملك المنيع الذمار ، رابع ملوك بنى نصر أنصار دين المدنيّ المختار (١) ، المجاهدين في سبيل الملك الغفار ، الباذلين في رضاه كرائم الاموال ونفائس الاعمار ، المعظّم المقدّس المرحوم أبي الجيوش نصر ابن السلطان الاعلى ، الهمام الاسمى ، المجاهد الاحمى ، الملك العادل ، الطاهر الشمائل ، ناصر دين الاسلام ومبيد عَبَدة الاصنام ، المؤيد المنصور ، المقدّس المرحوم أمير المسلمين أبي عبدالله ، ابن السلطان الملك الجليل الشهير مؤسس قواعد الملك على التقوى والرضوان وحافظ كلمة الاسلام وناصر دين الايمان ،

---

(١) في المراكشية « المصطفى المختار »

الغالب بالله المنصور بفضل الله ، المقدّس المرحوم أمير المسلمين أبي عبدالله بن نصر ، تغمده الله برحمتـه وغفرانه ، وبوّأه منازل احسانه ، وكتبه في أهل رضوانه * كان مولده في يوم الاثنين الرابع والعشرين لشهر رمضان المعظم عام ستة وثمانين وستمائة ، وبويع في يوم الجمعة غرّة شوال عام ثمانية وسبعمائة ، وتوفي ليلة يوم الاربعاء السادس لشهر ذي قعدة عام اثنين وعشرين وسبعمائة . فسبحان الملك الحق المبين ، وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

يا قبر جاد ثراك صوبُ غمام ... يهمي عليك برحمـة وسلام
بوركتَ لحداً فيه أيُّ وديعة ... ملك كريمٌ من نجار كرام
ماشئت من حلم ومن خلق رضىً ... وزكاء أعراق ومجد سام
فاسعد بنصر رابع الاملاك مِن ... أبنـاء نصر ناصري الاسلام
من خزرج الفخر الذين مقامهم ... في نصر خير الخلق خيرُ مقام
يا أيها المولى المؤسَّس بيته ... في معدِن الاحساب والاحلام
ماللمنية والشبابُ مساعدٌ ... قد أقصدتك بصائبات سهام
عَجِلتْ على ذاك الجمال فغادرت ... ربعَ المحاسن طامس الاعلام
فمحا الردى من حسن وجهك آيةً ... محو النهار لسدْفة الاظلام
ما كنتَ الاّ بدرَ تمّ باهراً ... أخفى الخسوف عليك عند تمام
فعلى ضريح أبي الجيوش تحيةٌ ... كالمسك عَرفاً عند فضّ ختام
وتغمّدته رحمة الله التي ... تُرضيه من عَدْنٍ بدار مُقـام

***

إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد بن أحمد
ابن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الأنصاري الخزرجي

أمير المسلمين بالأندلس ، يكنى أبا الوليد

حاله

من (طُرْفة العصر ، في تاريخ الدولة النصرية) من تصنيفنا :

كان رحمه الله جميلَ الخلق ، حسن الرُواء ، رجلَ جدّ ، سليمَ الصدر ، كثيرَ الحياء ، صحيح العقد ، ثبتاً في المواقف ، عفيف الازار ، ناشئاً في حجر الطهارة ، بعيداً من الصبوة بريئاً من المعاقرة . نشأ مشتغلاً بشأنه ، متبنّكا نعمة أبيه [1] مختصاً بإيثار السلطان جده أبي امه[2] وابن عم والده ، منقطعاً الى الصيد مصروف اللذة الى استجادة سلاحه وانتقاء مراكبه واستفراه جوارحه . الى أن أفضى اليه الامر وساعدته الايام وخدمه الجد وانتقل به الى بيت الملك وثوى في عقبه الذكر ، فبذل العدل فى رعيته واقتصد في جبايته ، واجتهد فى مدافعة عدو الله وعدوّه وسدّ ثلم ثغره ، وكان غرّة في قومه ودرّة في بيته وحسنة من حسنات دهره

أولاده

تخلّف من الولد أربعة : أكبرهم محمد وليّ عهده والامير من بعده . وفرج شقيقه التالى له ، المنصرف عن الاندلس بعد مهلك أخيه ، المتقلب أخيراً في الايالات ، المتوفّى معتقلاً بالمرية عام أحد وخمسين وسبعمائة مظنوناً به الاغتيال .

(١) تبنك بالمكان : أقام به وتأهل ، وتبنك في عزه : تمكن
(٢) في نسخة الاسكوريال « جد أبي امه »

ثم أمير المسلمين أخوه أبو الحجاج تغمده الله برحمته ، أقعدُ القوم في الملك ، وأبعدهم أمداً في السعادة . ثم اسماعيل أصغرهم المبتلى زمنَ شبيبته بالاعتقال المخيف مدّة أخيه المستقرّ بالمغرب

﴿ وزراؤه ﴾

وزيره أولَ أمره القائدُ أبو عبدالله محمدبن أبي الفتح نُصيرُ بن ابراهيم بن محمد بن نصير بن أبي الفتح [1] الفهري . وبيت هؤلاء القواد شهير ، ومكانتهم من الملوك النصريين مكينة

ثم أشرك معه فى الوزارة الوزيرَ أبا الحسن عليّ بن مسعود بن علي بن مسعود المحاربي من أعيان الحضرة وذوي النباهة ، فجاذب رفيقه حبل الخطة ونازعه لباس الحظوة حتى ذهب باسمها ومسماها . وهلك القائد أبو عبد الله بن أبي الفتح فخلص اليه شربها

﴿ كتّابه ﴾

كتب عنه لاول أمره بمالقة ثم بطريقه الى غَرناطة وأياماً يسيرة بها الفقيهُ الكاتب أبو جعفر بن صفوان المالقي

ثم ألقى المقادة الى كاتب الدولة قبلُ شيخنا أبي الحسن بن الجيّاب فاصل الخطة وباري القوس ، واقتصر عليه الى آخر أيامه

﴿ قضاته ﴾

استقضى أخا وزيره الشيخ الفقيه أبا بكر يحيى بن مسعود بن علي ، رجلَ الجزالة وفيصل الحكم . فاشتدّ في اقامة الحقّ وغلُظ بالشرع واستعان بالجاه ،

(١) في المرا كشية « محمد بن نصير أبي الفتح » بلا « ابن »

خيفت سطوته ، واستمرّ قاضياً الى آخر أيامه

﴿ رئيس جنده الغربي ﴾

ومن أول هذه الدولة نبهت هذه الرتبة واستحقت إفرادنا اياها الشيخ البُهْمة [1] لبابُ قومه وكبير بيته [2] أبو سعيد عثمان بن أبي العلى ادريس بن عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق مشاركا له في النعمة ، ضاربا بسهم في المنحة ، كثير التجنّي والدالة ، الى أن هلك المخلوع وخلا الجوّ ، فكان منه بعض الاقصار

﴿ الملوك على عهده ﴾

وأولا بالمغرب ثم بفاس : السلطان الشهير جواد الملوك الرحب الجناب الكثير الامل خِدن العافية ومحالف الترفيه ومتبحبح النعيم السعيد على خاصته وعامته أبو سعيد عثمان ابن السلطان الكبير المجاهد الصالح المرابط أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق . وجرت بينهما المراسلات واتصلت أيامه بالمغرب بعد مهلكه وصدراً من أيام ولده الأمير أبي عبد الله حسب ما يمر عند ذكره

وبتلمسان : الأمير أبو حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان . ثم توفي قتيلاً بأمر ولده على عهده سادس عشر جمادى الثانية من عام ثمانية عشر وسبعمائة

ووليَ الأمرَ مُغتاله ولدُه المذكور أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى ، واستمرّت أيامه بعد مهلك السلطان المذكور ، واستغرقت أيامَ ولده الوالي بعده ، الى أن هلك في صدر أيام السلطان أبي الحجاج ، وجرت بينه وبين السلطان

(١) البهمة : الفارس الذي لايدرى من أين يؤتى له من شدة بأسه
(٢) في نسخة الاسكوريال « وبيته » أو « قوته »

أبي الوليد مراسلات ومهاداة

وبمدينة تونس : الشيخ المتلقّب بإمرة المؤمنين أبو يحيى زكرياء بن أبي العباس بن أبي حفص المدعوّ باللحياني المتوثب بها على الأمير أبي البقاء خالد بن أبي زكرياء بن أبي اسحاق بن أبي حفص ، وهو كبير آل حفص سناً وقدراً . تملك تونس تاسع جمادى الآخرة من عام أحد عشر وسبعمائة . وتمّ له الأمر

واعتقل أبا البقاء بعد خلعه ثم اغتاله في شهر شوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة . ثم رحل عن تونس لما ظهر له من اضطراب أمره بها ، وتوجه الى أطرابلس في وسط عام خمسة عشر وسبعمائة ، واستناب صهرَه الشيخ أبا عبد الله بن أبي عمران ، ولم يعد اليها بعد ذلك

ثم اضطرب أمرُ افريقية وتناوبه عدّةٌ من الملوك الحفصيين منهم الأمير أبو عبد الله بن أبي عِمران المذكور ، وأبو عبد الله اللحياني والسلطان أبو بكر ابن الأمير أبي زكرياء بن الأمير أبي اسحاق لِبِنَة تمامهم وآخر رجالهم ، واستمرّت أيامه الى مدّة ولده الامير بالاندلس ثم معظم أيام ولديه . رحم الله الجميع

ومن ملوك الروم * أولاً بقشتالة : كان على عهده وفي الزمن القريب من ولايته وفاة الطاغية هرانده بن شانجه بن ألفونش بن هرانده (المجتمع له ملك ليون وقشتالة ، وهو المتغلب على قرطبة واشبيلية ومرسية وجيان) ابن الهونش (الجارية له وعليه وقعتا الأرك والعُقاب) ابن شانجه (المسمى انبرذور [1] وهو الذي أفرد صهره زوج بنته بملك بُرتقال) الى أجداد يخرجنا تقصّي ذكرهم عن الغرض

---

(١) كذا بالمراكشية . وفي نسخة الاسكوريال « ابرينور »

ومن ملوك رغون بشرق الأندلس : الطاغية جايمش ابن بيطرُه بن جايمش (الذي تغلب على بلنسية) بن بيطره بن الهونش الى أجداد عدة كذلك . ثم هلك في أخريات أيامه ، فولي ملك رغون بعده الهونش بن جايمش الى آخر أيامه

وببرتقال : الهونش بن ذونيش بن الهونش[١] بن شانجه بن الهونش بن شانجه بن الهولش ، وتسمّى أولاً دُوقًا

﴿ بعض الاحداث ـ وبداية أمره ﴾

ولما تصيّر الأمر الى السلطان نصر مدبّر الوثوب بأخيه تنازعت بطانته وساءت سيرةُ ملكه ، فأغريَ بالرئيس الكبير صاحب مالقة وبيده الجزيرة وسبتة ، وتُعقّب عليه كثيرٌ من التصرّف فيما بيده ، ثم لما وصل الى الحضرة مبايعاً داخله بعضهم محذراً ومشيراً بالامتناع ، فاستعجل الانصراف ، وأظهر الاستبداد في رمضان سابع عشر منه ، وأقام رسم الملك بولده السلطان أبي الوليد[٢] هذا وتحرّك فنازل الحصون المجاورة لمالقة واستولى عليها

وفي أول شهر محرّم من عام اثني عشر وسبعمائة تحرّك فنزل بقرية العطشاء من مرجها ، وبرز السلطان نصر اليـه في جيش أخشن مستجاد العدّة وافر الرَّجْل[٣] ، فكان اللقاء ثالث عشر الشهر فأظهر اللهُ أقلّ الطائفتين ، وانجرّت على الجيش الغَرناطيّ الهزيمة ، وكبا بالسلطان نصرٍ فرسه في مجرى سقي لبعض الفدن فنجا بعد لأيٍ ودخل البلد مفلولاً وانصرف الجيش المالقي

---

(١) كذا بالمرا كشية . وفي نسخة الاسكوريال « الهنشه »

(٢) في نسخة الاسكوريال « أبو الوليد »

(٣) الرجل : الجنود المشاة . وفي المرا كشية « الرجا »

ظاهراً الى بلده . ثم وقعت المهادنة في ربيع الأول من هذا العام وعادت الفتنة جذعة في العام بعده

وكانت في رمضان منه ثورة الاشياخ بغرناطة ودعاؤهم بخلمان السلطان ودعوة مخلوعه المعتقل ، طالبين منه اسلام وزيره خِدْن الروم المتهم على الاسلام محمد بن الحاج . ثم لحق الاشياخُ المذكورون فارّين بمالقة عند اختلال ما أبرموه

وكانت الحركة الثانية الى غَرناطة بعد امورٍ اختصرتُها من استبداد السلطان أبي الوليد بنفسه والانحطاط في القبض على أبيه الى هوىً جنده والتصميم في طلب حقه ، فاتصل سيره ، واحتلّ ببلدنا لوشة سِرار شوّال فتملّكها . ثم قصد غرناطة وبرز اليه جيشها ، وأبلى في الدفاع ، فكادت تقع به الدبرة لولا ثبوت السلطان . وأسلفهم الحلة فولوا منهزمين ، وتبعهم الى سور المدينة . وقد خف اللفيف والغوغاء والناعقون بالحلمان الشرِهون الى تبديل الدعوات الى نسمّ المآذن والمنازهِ [١] والرُبى . وبرز أهل ربض البيازين الهافون الى مثل هذه البوارق [٢] الى شرَف بيوتهم كلٌّ يشير مستدعياً مستقدماً ، اعلاناً بسوء الجوار وملال الايالات والانحطاط في وهد التقلب والتلوّن وسآمة العافية : شنشنة معروفة ، وخليقة في الخليقة مألوفة . وبودر غلق باب إلبيرة فنُقض قفله ودُخلت المدينة ولجأ السلطان الى معقل الحمراء ودخله بأهله وذخيرته وخاصّته ، ونزل الداخلُ بالقصبة القدْما تُجاهها [٣] ينفذ الصكوك ويتألف الشارد ويذيع العفو ، وضعفت بصائر المحصورين وفشلوا - على وجود الطعمة وتمكّن المنعة ووفور المال - فالتمسوا لأنفسهم ولسلطانهم عهداً ، ونزلوا منتقلين الى مدينة

(١) بالمراكشية « والمنازة »
(١) فى نسخة الاسكوريال « البوار، »
(٢) أي تجاه الحمراء ، وقد مضى ذكر « القدما » في ص ٦٢

وادي آش ، في سبيل العوض بمال معروف وذخيرة ، فتم ذلك ، وخرج السلطان نابياً به قرارُ جده وأبيه ، جانياً على ملكه الأخابثُ الأغمار ، ليلة الثامن والعشرين لشوّال عام ثلاثة عشر وسبعمائة الى أن هلك حسب ما تقدم ذكره وخلا للسلطان أبي الوليد الجوّ ، وضُربت اليه المقادة واطاعه القاصي والدان ولم يختلف عليه اثنان

﴿ مناقبه ﴾

اشتد على أهل البدع وقصر الخوض على ما تضطر اليه الملّة . ولقد تُذوكر يوماً بين يديه اصول الدين فقال : اصول الدين عندي « قل هو الله أحد » (السورة) وهذا (وأشار الى سيفه)

واعتنى بأهل بيت رسول الله ﷺ فبذل في فداء بعض أعلامهم ما يعزُّ بذله ، ونقل منهم بعضاً من حِرَفٍ خسيسة ، فزعموا أنه رأى رسول الله ﷺ يشكر له ذلك

واشتد في اقامة الحدود واراقة المسكرات

وأخذ يهود الذمة بالتزام سمةٍ تشهرهم وشارة تميزهم ليوفّوا حقهم من المعاملة التي أمر بها الشارع في الطرق والخطاب

﴿ جهاده وبعضُ الأحداث في مدّته ﴾

التاثت أُموره لأوّل مدّته ، فجرت عليه الهزيمة الشنيعة بوادي فرتونة أوقع بجيشه الطاغية بمظاهرة السلطان المخلوع ، ففشا في الاعلام يومئذ القتل في صفر من عام ستة عشر وسبعمائة ، وظهر العدوّ بعدها على حصن قنبل [1]

(١) في نسخة الاسكوريال « قنبيل »

وحصن مُتمانس وحصن نجيج [١] وحصن طشكر وحصن رُوط . ثم صرفت المطامعُ عزمه الى الحضرة فقصد مرجها وكفّ الله عاديته وقمعَه ونصر الاسلام عليه ودالت للدين الهزيمة العظمى بالمرج على بريد منها . واستولى على محلاّته [٢] النهبُ ، وعلى فرسانه ورجاله القتلُ والأسار ، وعظم الفتح وبهر الصنع وطار الذكر وثاب السعد واستقامت الأيام

وهلك المخلوع ، فصفا الجوّ واتحدت الكلمة وأمكن الجهاد ، فتحرّك في رجب من عام أربعة وعشرين وسبعمائة ، وأعمل الحركة الى بلاد العدوّ ونازل أشكر ـ الشجى المتعرّض في حلق مدينة بسطة ـ فأخذ بمخنقها [٣] ونشر الحرب عليها [٣] ورمى بالآلة العظمى المتخذة بالنفط كرةً محماة طاقةَ البرج المنيع من معقله فعاثت عياث [٤] الصواعق السماوية فنزل أهلها قسراً على حكمه للرابع والعشرين من الشهر ، وفي ذلك يقول شيخنا الحكيم أبو زكرياء بن هذيل رحمه الله من قصيدة أولها :

بحيث البنود الحمرُ والأسَد الوَرْدُ   كتائبُ سكانُ السماء لهـا جندُ

في وصف آلة النفط :

وظنّوا بأن الرعد والصعق في السماء   فحاقَ بهم من دونها الصعقُ والرعدُ
غرائب أشكال سما هرْمسٌ بهـا   مهندمة تأتى الجبالَ فتنهدُّ
ألا انها الدنيا تريكَ عجائباً   وما في القوى منها فلا بدّ أن يبدو

وأقام رحمه الله بظاهرها فصيّرها دار جهاده [٥] وعمـل في خندقها بيده .

(١) بنسخة الاسكوريال « بجيج »
(٢) حيوشه
(٣) بالمراكشية « بمخنقه » ، « ثليه »
(٤) كذا بالمراكشية والاخرى « عثاث »
(٥) في المراكشية « جهاد »

وفي ذلك يقول شيخنا كاتب سرّه نسيج وحده أبو الحسن بن الجياب رحمه الله من قصيدة أولها :

أما مَداكَ فغاية لم تُسبقِ (١) أعيت على غرّ الجياد السُّبقِ
فاشرح بسعدك كل معنى مشكل وافتح بسيفك كل باب مغلق

في وصف عمله في خندق الحصن :

لله منكَ مَشاهد مشكورة عند الاله بمثلها لم تُسبقِ
مثل الحفير بها الذي باشرته فعلَ الرسول وصحبه في الخندق

وفي العاشر لرجب من عام خمسة وعشرين وسبعمائة تحرّك الى الغزو وأخذ الاهبة واستكثر من الآلة واحتشاد المطوّعة ، وقصد مدينة مُرْتُش العظيمة الساحة الطيبة البقعة فأضرب (٢) بها المحلاّت ، وكان قصده اجمام الناس الى الغد فصرفت الحشود وجوهها الى مابها من شجر الكروم الملتفات وأدواح الاشجار وأمعنوا في افسادها ، وبرز حاميتها ، فناشبت الناسَ القتال ، فحميت النفوس ، وأريدَ منعُ الناس فأعيا أمرهم وسال منهم البحر فتعلقوا بالاسوار وقيل للسلطان بادر الركوب فقد دُخل البلدُ ، فركب ووُقف بازائه ، فدخل الحصن عنوة ، واعتصم أهله بالقصبة فدُخلت أيضاً عنوة ، وانطلقت أيدى الغوغاء على من بها من ذكر وأنثى صغير أو كبير ، فسالت القتلة وقبحت الاحدوثة ورُفعت من الغد آكام من الجثث صَعِدت ذراها المؤذّنون ، وقفل الى غرناطة بنصر لا كفاء له . وكان دخوله من هذه الغزاة في الرابع والعشرين لرجب المذكور

وفاته

ولما فصل من مَرْتُش نقم على أحد الرؤساء من قرابته ، وهو ابن عمه محمد

(١) في نسخة الاسكوريال « تلحق » (٢) في نسخة الاسكوريال « فاضطرب »

ابن اسماعيل المعروف بصاحب الجزيرة ، أمراً تقرّعه عليه وبالغ في تأنيبه وتوعّده بما أثار حفيظته ، فأقدم عليه بالفتكة الشنعاء التي ارتكبها منه بباب قصره بين عبيده آمَنَ ما كان سِرْباً وأعزّ نفرا وأمكنَ امتناعا ، غُدوة يوم الاثنين الثالث من يوم دخوله بعد أن عاهد في الأمر جملة من القرابة والخدام ووثب به وهو مجتاز بين السماطين من ناسهِ الى مجلس القعود الخاصّ ، فاعتنقه وسلّ خنجراً ملصقاً بذراعه ، فأصابه بجراحاتٍ ثلاث : إحداهنّ بأعلى ترقوته فَرَتْ وَدَجَه فخرّ صريعاً وصاح ، فكرّ الوزير ، فعممته سيوفُ الحاضرين من أصحاب الفاتك ، ووقعت الرجّة وسُلّت السيوف وتشاغل كلٌ عن يليه ، واستُخلص السلطان من بين يديه وحِيلَ بينه وبينه ، فرُفع وظنت نجاته ، فوقع البهت ، وبادر الفرارَ وقد سُدّت المذاهب فقتلوا حيث وُجدوا . وأخذت الظِنّة قوماً من أبريائهم فاستُحلفوا (١) ونهبت الغوغاء دورهم وعُلّقت بالجدرات أشلاؤهم ، واحتُمل السلطان الى بعض دُوره وبه رمق لِلْزوق العمامة بفوهة وَدَجه المبتور ففاض لحينه رحمه الله . ودُفن غلَس ليلة يوم الثلاثاء ثاني يوم وفاته بروضة الجنان من قصره الى جانب جدّه ، وتُنوهيَ في احتفال قبره نقشاً وتنجيداً وإحكاماً وحَلْياً وتمويهاً بما يشذّ عن الوصف ، وكُتب على قبره نقشاً في الرُخام :

« هذا قبر السلطان الشهيد ، فتّاح الأمصار ، وناصر ملّة المصطفى المختار ، ومحيي سبيل آبائه الأنصار ، الامام العادل ، الهمام الباسل ، صاحب الحرب والمحراب ، الطاهر الانساب والاثواب ، أسعد الملوك دولة ، وأمضاهم في ذات الله صولة ، سيف الجهاد ، ونور البلاد ، الحُسام المسلول في نصرة

(١) بنسخة الاسكوريال « فاستحلموا » بالميم

الايمان ، والفؤاد المعمور بخشية الرحمن ، المجاهد في سبيل الله ، المنصور بفضل الله ، أمير المسلمين أبي الوليد اسماعيل ، ابن الهمام الأعلى الطاهر الذات والنجار الكريم المآثر والآثار ، كبير الإمامة النصرية ، وعماد الدولة الغالبية ، المقدّس المرحوم أبي سعيد فرج ، ابن علَم الأعلام ، وحامي حمى الاسلام ، صنو الامام الغالب ، وظهيره العليّ للمراتب ، المقدّس المرحوم أبي الوليد اسماعيل ابن نصر قدّس الله روحه الطيّب ، وأفاض عليه غيثَ رحمته الصيّب ، ونفعه بالجهاد والشهادة ، وحباه بالحسنى والزيادة ، وصنع له في فتح البلاد ، وقتل كبار ملوك الأعاد ، ما يجده مذخوراً يوم التناد ، الى أن قضى الله بحضور أجلَه ، فختم عمره بخير عمله ، وقبضه الى ما أعدّ له من كرامته وثوابه ، وغبار الجهاد طيّ أثوابه * استُشهد رحمه الله غدْرةً أثبتت له في الشهداء من الملوك قدماً ، ورفعت له في أعلام السعادة علَماً * وُلد رضي الله عنه في الساعة المباركة بين يدي الصبح من يوم الجمعة سابع عشر شهر شوّال عام سبعة وسبعين وستمائة ، وبويع يوم الخميس السابع وعشرين لشوّال عام ثلاثة عشر وسبعمائة ، واستُشهد في يوم الاثنين السادس والعشرين لشهر رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة * فسبحان الملك الحقّ ، الباقي بعد فناء الخلق »

وبعده من جهة أخرى :

تخصُّ قبرَكَ ياخيرَ السلاطين ... تحيةٌ كالصَّبا مرّت بدارين
قبرٌ به من بني نصر إمامُ هدى ... عالي المراتب في الدنيا وفي الدين
أبو الوليد ، وما أدراك من ملكٍ ... مستنصر واثقٍ بالله مأمون
سلطانِ عدل وبأس غالب وندىً ... وفضل تقوى وأخلاق ميامين
لله ما قد طواه الموت من شرف ... وسرّ مجد بهذا اللحد مدفون

ومن لسانٍ بذكر الله منطلق ... ومن فؤاده بحبّ الله، مسكون
أما الجهاد فقد أحيىْ معالمه ... وقام منه بمفروض ومسنون
فكم فتوح له تُزهى المنابرُ من ... عُجبٍ بهنّ وأوراقُ الدواوين
مجاهد نال من فضل الشهادة ما ... يُجبىْ عليه بأجر غير ممنون
قضى كعثمانَ في الشهر الحرام ضُحىً ... وفاةَ مستشهد في الدار مطعون
في عارضيه غبار الغزو تمسحه ... في جنة الخلدِ أيدي حورها العِين
يُسقىْ بها عين تسنيمٍ ، وقاتله ... مُرَدَّدٌ بين زَقّوم وغسلّين
تبكي البلادُ عليه والعباد معاً ... فالخلق ما بين أحزانٍ أفانين
لكنه حكمُ ربٍّ لا مردّ له ... فأمره الجزمُ بين الكاف والنون
فرحمة الله ربّ العالمين على ... سلطان عدل بهذا القبر مدفون

وعظمت فيه فجيعة المسلمين ، لما ثكلوا من جهاده وعزمه وبلوْه من سعده وعزّة نصره . فكثرت فيه المراثي ، وتراهقت في شجوه القرائح ، وبكاه الغادي والرائح . فمن المراثي التي أنشدت على قبره قولُ كاتبه شيخنا أبي الحسن ابن الجيّاب :

أيا عَبرةَ العين امزُجي الدمعَ بالدم ... ويازفرةَ الحزن احكمي وتحكّمي
وياقلبُ ذب وجداً وغمّا ولوعة ... فان الأسى فرضٌ على كل مسلم

وقول كاتبه الوزير الأديب أبي عبد الله بن اللوشيّ :

بَرّدْ بنار الشوق منكَ غليلا ... فالمجد أضحى شاكيًا وعليلا

منها ـ وهو غرضٌ حسن ـ :

قلّدتُ سيفَ الوجد فارسَ لوعتي ... أسفاً وأجريتُ الدموع خيولا
وبنيتُ أبياتَ الرثاه وقد رأت ... عيني بيوتَ المكرمات طلولا

وقول كاتبه الفقيه القاضي أبي بكر بن شبرين :

عزَّ العزاء فما الذي نُبديه ... في الحزن الا بعض ما نخفيه
يا أيها الحادي يحثُّ قلوصه ... إيه عن الخبَر المرجَّم إيه (١)
أودى أمير المسلمين فكيف لا ... نأسى عليه، وكيف لا نبكيه
قد كان للاسلام عينَ بصيرة ... فأصابت الاسلامَ عَيْنٌ فيه

***

محمد بن اسماعيل بن فرج بن اسماعيل بن يوسف بن محمد
ابن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي
أمير المسلمين بالأندلس بعد أبيه ـ يُكنى أبا عبد الله

حاله

كان معدوداً في نبلاء الملوك وأبناء الملوك صرامة وعزّة وشهامة وجمالا وخَصلاً، عذبَ الشمائل حلواً لبقاً لوذعياً هشّاً سخياً. المثلَ المضروب في الشجاعة المقتحمة حدّ التهوّر، حلسَ ظهور الخيل، أفرسَ من جال على صهوة، لاتقع العين ـ وان غصّت الميادين ـ على أدربَ بركض الجياد منه، مغرماً بالصيد، عارفاً بسِيات الشفار وشيات الخيل، يحبّ الأدب، ويرتاح الى الشعر، وينبّه على العيون، ويلمّ بالنادرة الحارّة

أُخذت له البيعة يوم مهلك أبيه يوم الثلاثاء السابع والعشرين لرجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة، وناله الحَجْبُ واشتملت عليه الكفالة الى أن شدا وظهر وشبّ عن الطوق. وفتك بوزيره المتغلّب على ملكه وهو غلام لم يُبقِل خدّه، فهيبَ شباه ورُهبت سطوته وبرز لمباشرة الميادين وارتياد المَطارد واجتلاء الوجوه، فكان ملء العيون والصدور

(١) كذا في نسخة الاسكوريال وفي الأخرى « الخبر المرجم ايه »

﴿ ذكاؤه ﴾ .

حدثني ابن وزير جده القائم أبو القاسم بن محمد بن عيسى قال : تُذوكر يوماً بحضرته تباينُ معنى قول المتنبي :

أيا خدَّدَ الله وردَ الخدو د وقدَّ قدودَ الحسان القدود

وقول امريء القيس :

وإن كنتِ قد ساءتك مني خليقةٌ فسلّي ثيابي من ثيابك تنسل

وقول ابراهيم بن سهل :

إني له من دمي المسفوكِ معتذرٌ أقولُ حمّلته من سفكه تعبا

فقال رحمه الله بديهاً ـ على حداثته ـ « بينهم ما بين نفس ملك عربيّ وشاعر عربيّ ونفَس يهوديّ تحت الذمّة ، وإنّما تتنفّس النفوس بقدر هممها » أو ما معناه هذا

﴿ همته ﴾

لما نازل مدينة قبرة [١] ودخلها عنوة ، وهي ما هي عند المسلمين والنصارى من الشهرة والجلالة ، بادرنا نهنئه بما تسنّى له ، فزوى عنّا وجهه قائلاً : « وماذا تهنّوني به ، كأنكم رأيتم تلك الحرقة الكذا ـ يعني العَلَم الكبير ـ في مَنار إشبيلية » فعجبنا من بعد همّه ومرمى أمله

﴿ الشجاعة ﴾

أقسمَ أن يُغير على باب مدينة بيّانة [٢] في عدة يسيرة من الفرسان عيَّنَتْها اليمينُ ، فوقع البهتُ وتُوُقّعت الفاقرة لقرب الصريخ ومِنعة الحوزة

(١) كورة تتصل بأعمال قرطبة من قبليها
(٢) بنسخة الاسكوريال « على مدينة بيانة »

وكثرة الحامية ووفور الفرسان ، وتنخّل أهلَ الحفاظ وهجم عليها فانتهى الى بابها وحمل على أضعافه من الحامية فألجأهم الى المدينة ، ورمى يومئذ لُحدَ النصاري بعزراق محلّى السنان رفيع القيمة فأثبته ، وتحامل الطعين يريد الباب فمَنع من الأجهاز عليه وانتزاع الرمح الذي كان يجرّه خلفه وقال : « اتركوه يعالج به جُرحه ان أخطأته المنية » فكان كما قال الشاعر في مِثله ـ أنشدَناه أبو عبد الله بن الكاتب ـ :

ومن جُوده يرمي العداةَ بأسهم من الذهب الأبريز صيغت نُصولها
يُداوي بها المجروحُ منها جراحَه ويتخذ الاكفانَ منها قتيلها

﴿ جهاده ومناقبه ﴾

نازل حصنَ قشرة [1] لأوّل أمره وهدّ سوره وكاد يتغلّب عليه لولا مَدَدٌ دخله ، فارتحل وقد دوّخ الصقع

ونازل قبرة وافتتحها ، وهزم جيش العدوّ [الذي بيّت محلّته [2] بظاهرها

وتخلّص جبلَ الفتح وهى أعظم مَناقبه ، وقد نازله الطاغية [3]] وأناخ عليه بكلكله ، وهدّ بالمجانيق اسواره فدارى الطاغية واستنزل عزمه وتاحفه الى أن صرفه عنه ففازت به قداح الاسلام

﴿ بعض الاحداث ﴾

وفي شهر محرّم من عام سبعة وعشرين وسبعمائة نشأت الوحشة بين

(١) كذا في نسخة الاسكوريال . والذي في المراكشية « بشرة » ولم أجد هما عنده ياقوت ولكنه ذكر مدينة باسم (قشيرة) بضمتين فسكون ففتح وقال انها من نواحي طليطلة

(٢) معسكره

(٣) الزيادة بنسخة الاسكوريال دون المراكشية

وزيره المتغلب على أمره محمد بن أحمد المحروق وبين شيخ الغزاة عثمان بن أبي العُلى فصبّت على المسلمين شؤبوبَ فتنة (١) عظم فيهم أثرها فخرج مغاضبا ومم (٢) للانصراف عن الاندلس ولحق بساحل المرية (٣) ثم داخل أهل حصن اندرش (٤) فدخل في طاعته واستضاف اليـه مايجاوره ، فأعضل الداء وغامت سماء المحنة . واستلحق المذكور عم السلطان من تلمسان محمد ن فرج بن اسماعيل فلحق به وقام بدعوته في أُخريات صفر من عام سبعـة وعشرين وسبعمائة ، وكانت بينهم وبين جيش الحضرة وقمات تناصفوا (٥) فيها الظفر . واغتنم الطاغية فتنة المسلمين فخرج غرة شعبان من العام ونازل ثغر وبرة (٦) ركاب الجهاد (٧) فتغلب عليه واستولى على جملة من الحصون التي تجاوره فاتسع نطاق الضرّ وأعيا داء الشرّ وُصرفت الى نظر السلطان ملك المغرب في أُخريات العام رُندة ومَربلّة وما اليهما وأجلت الحال عن مهادنة عثمان بن أبي العُلى وصرف المستدعى لدعوته الى العدوة . وعبر هذا الاميرُ رحمه الله البحر بنفسه مستصرخاً ومستدعياً للجهاد في الرابع والعشرين من شهر ذي حجة عام اثنين وثلاثين وسبعمائة ووفد على ملـكه السلطان الشهير أبي الحسن علي ابن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق مستصرخاً إياه فأعظم وفادته وأكرم نزله وأصحبه الى الأندلس ولده وحباه بما لم يُحبَ به ملك تقدّمه من مقربات

(١) في نسخة الاسكوريال «شؤوب فتنه» وفي المراكشية «شوب» فتنه

(٢) كذا بالمراكشية . وفي الاخرى «وسيم»

(٣) كذا بالمراكشية . وبالاخرى «المدينة»

(٤) كذا بالمراكشية . وفي الاخرى «أندرحن» وفوق الحاء ثلاث نقط . وفي معجم البلدان «اندراش» : بلدة بالاندلس من كورة البيرة »

(٥) كذا بنسخة الاسكوريال . وفي المراكشية « تناقصوا »

(٦) كذا بالمراكشية . وبالاخرى «ديرة»

(٧) كذا نسخة الاسكوريال . وبالمراكشية «ركب الجهاد»

الخيل وخطير الذخيرة ومستجاد العدّة . ونازل على أثره جبل الفتح وهيّأ الله فتحه ثم استنقاذه بلحاق السلطان ومحاولة أمره ، فتمّ ذلك في يوم الثلاثاء الثاني عشر من شهر ذي حجة عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة

﴿ وزراء دولته ﴾

وزر له وزيرُ أبيه أبو الحسن بن مسعود ، وأخذ له البيعة وهو مُثخَن بما أصابه من الجراحات يوم الفتك أبيه ، ولم ينشب أن أجهزت عليه عدواها

وتولّى له الوزارة بعده وكيلُ أبيه محمد بن أحمد بن محمد بن المحروق من أهل غرناطة يوم الاثنين غرة شهر رمضان عام خمسة وعشرين وسبعمائة . ثم قُتل بأمره ثاني يوم من محرم فاتح عام تسعة وعشرين وسبعمائة

ثم وزر له القائد محمد بن أبي بكر بن يحيى بن مول المعروف بالقيجاطي من وجوه الدولة الى سابع عشر من شهر رجب من العام . ثم صُرف الى العدوة

وأقام رسم الوزارة والحجابة والنيابة مولى أبيه القائدُ أبو النعيم رضوان الشهير الديانة والسعادة الى آخر مدّته بعد أن التاث أمرُه لديه وزاحمه بأحد المماليك يسمّى عصاما أياما يسيرة بين يدي وفاته

﴿ كتّابه ﴾

كتب عنه كاتب أبيه وأخيه شيخنا الامام العلاّمة الصالح أبو الحسن بن الجيّاب رحمه الله الى آخر مدّته

﴿ قضاته ﴾

استمرّت الاحكام لقاضي أبيه وأخي وزيره الشيخ الفقيه أبي بكر يحيى بن

مسعود المحاربي رحمه الله الى عام سبعة وعشرين وسبعمائة ، فتوجَّه رسولا الى ملك المغرب وأدركته الوفاة بمدينة سلا فدفن بها بمقبرة شالَّة

وتخلَّف ولدَه أبا يحيى مسعوداً نائباً عنه ، فاستمرَّت له الأحكام واستقلَّ بعده الى أن صُرف عن القضاء يوم عاشوراء من عام أحد وثلاثين وسبعمائة

وتولَّى الأحكامَ الشرعية شيخنا الامام العَلَم الأوحد خاتمة الفقهاء وصدر القضاة العلماء أبو عبد الله محمد بن يحيى بن بكر الأشعري المالقي ، فاستمرَّ له الحكم الى تمام مدته وصدراً من أيام أخيه بعده

﴿ مَن كان على عهده من الملوك ﴾

وأولاً بالمغرب : السلطان الشهير الكبير الجواد وليُّ العافية وحليف السعادة أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق ، الى أن تُوفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر ذي قعدة عام أحد وثلاثين وسبعمائة

ثم صار الأمر الى ولده السلطان المقتفي سننه في المجد والفضل وضخامة السلطان مبرّاً عليه بالبأس المرهوب والعزم الغالب والجد الذي لا يشوبه هزل والاجتهاد الذي لا تتخلّله راحة ، أبو الحسن الى آخر مدته ، ثم مدّة أيام أخيه بعده

وبتلمسان : الأمير عبد الرحمن بن موسى أبو تاشفين ، مشيّد القصور ومروّض الغروس ومتبنّك الترف الى تمام مدته وصدراً من مدة أخيه بعده

وبتونس : الأمير أبو يحيى أبو بكر ابن الأمير أبي زكريا ابن الأمير أبي اسحاق لبنة تمام القوم وصقر جوارح متأخريهم الى تمام مدّته وصدراً كبيراً من دولة أخيه

ومن ملوك النصارى * وأولاً بقشتالة : ألفونش بن هرانده بن شانجه ابن ألفونش بن هرانده الذي ملك على عهده لجفوتين [١] القنيطلية [٢] والثا كرونية . واتصلت أيامه الى أخريات أيام أخيه

وبرغون : الفونش بن جايمش بن ألفونش بن پيطره ابن ألفونش بن پيطره بن جايمش المستولي على بلنسية الى آخر مدته وصدراً من مدة أخيه

﴿ وفاته ﴾

وتوغّرت عليه صدور رؤساء جنده المغاربة اذ كان شرِهًا لسانه غير جزوع ولا هيابة ، فربما تكلم بملء فيه من الوعيد الذي لا يخفى عن المعتمد به . وفي ثاني يوم من اقلاع الطاغية عن جبل الفتح بسعيه وحسن مجاولته - وهو يوم الأربعاء ثالث عشر من شهر ذي الحجة وقد عزم على ركوب البحر من ساحل منزله بموقع وادي السقايين - تماروا [٣] من ظاهر الجبل تخفيماً للمؤنة واستعجالا للصدر ، وقد أُخذت على حركته المراصد . فلما توسّط كمينَ القوم ثاروا اليه وهو راكب بغلا أثابه به ملك الروم ، فشرعوا في عتبه بكلام غليظ وتأنيب قبيح ، وبدأوا بوكيله فقتلوه ، وعجل بعضهم فطعنه ، وترامى عليه مملوك من مماليك أبيه زنمة من أخابث المعلوجا اسمه ريان صونع على مباشرة الاجهاز عليه فقضى لحينه في سفح الربوة المائلة يسرة العابر للوادي ممن يقصد الجبل ، وتركوه بالعراء مسلوب الساتر سيء المصرع قد عدت عليه نعمه وأوبقه سلاحه وأسلمه أنصاره وحُماته

(١) كذا بنسخة الاسكوريال . وفي الاخرى « الحفرتين » وأصلحت بقلم آخر « الحضرتين »
(٢) كذا في نسخة الاسكوريال . وفي الاخرى « القنيطية »
(٣) كذا بالمراكشية . وفي الاخرى « تثياروا »

ولما فرغ القوم من مبايعة أخيه السلطان يوسف صُرفت الوجوه الى دار الملك ونُقل القتيل الى مالقة فدفن على حاله تلك برياض تجاور منية السيد، فكانت وفاته ضحوة يوم الأربعاء الثالث عشر من ذي حجة عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة. وأقيمت عليه بُعيد زمان قبة ونوّه بقبره. وهو الآن ماثل بها رُهن وحدة، ومستدعى عبرة، وعليه مكتوب:

هذا قبر السلطان الأجلّ الملك الهمام الأمضى الباسل الجواد ذي المجد الأثيل والملك الأصيل المقدّس المرحوم أبي عبد الله محمد ابن السلطان الجليل الكبير الرفيع الأوحد المجاهد الهمام صاحب الفتوح المستورة والمغازي المشهورة سلالة أنصار النبي ﷺ أمير المسلمين وناصر الدين الشهيد المقدّس المرحوم أبي الوليد بن فرج بن نصر قدّس الله روحه وبرّد ضريحه. كان مولده في الثامن لمحرّم عام خمسة عشر وسبعمائة، وبويع في اليوم الذي استشهد فيه والده رضي الله عنه السادس والعشرين لرجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة، وتُوفي في الثالث عشر [١] لذي حجة من عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة، فسبحان من لا يموت

يا قبرَ سلطانِ الشجاعة والندى فرع الملوك الصيدِ أعلام الهدى
وسلالة السلف الذي آثاره وضّاحة لمن اقتدى ومن اهتدى
سلف لأنصار النبي نجاره قد حلَّ منه في المكارم محتدا
متوسطٌ البيت الذي قد أسّسته سادة الأملاك أوحدَ أوحدا
بيت بنوه محمدون ثلاثة من آل نصر أورثوه محمدا
أُودعتَ وجهاً قد تهلّل حسنه بدراً بآفاق الجلالة قد بدا

(١) كذا في المراكشية . وفي الاخرى « الثالث والعشرين » وقد تقدم في ص ٨٣ من النسختين أن وفاته في الثالث عشر وسيأتي مثل ذلك في ص ٨٩ عند ذكر ولاية أخيه

ونَدًى يسحّ على العفاة مواهباً   مَثنى الأيادي السابغات وموحدا
يبكيك مذعور بك استعدى على   أعدائه فسقيتهم كأس الردى
يبكيك محتاج أتاك مؤمّلاً   فغدا وقد شفعت يداك له اليدا
أما سماحك فهو أهمى ديمة   أما جلالك فهو أسمى مصعدا
جادت ثراك من الاله سحائب   لرضاه عنك تجود هـذا المعهدا

وتبعت هذا السلطانَ نفوسُ أولي الحرية (١) ممن له طبع رقيق وحسّ لطيف ووفاء كريم ، فصدر فيه من التأبين أقاويل للشجون مهيجة . فمن ذلك ما نظمه الشيخ القاضي أبو بكر بن شبرين وكان على ظرفه وحسن رواته غراب ندبة ونائحة حاتم يرثيه ويعرّض ببعض من حمل عليه من خدّامه :

استقلاّ   ودعاني طائعاً بين المغاني
وانعيا بالصبر إني   لا أرى ما تريانِ
قُضي الأمر الذي في   شأنه تستفتيانِ
ومضى حكم إله   ما له في الملك ثانِ
مات يوم السلم قعصاً (٢)   مِذْرَهُ الحرب العوان
واستُبيح الملك ابن الـمـلك الحرّ الهجان
ياخليـليّ أعينا   ني على شجو عناني
واذكرا سابغة النعـــمة فيما تذكران
واذا صلّيتما يو   ماً عليـه أذّنانِ
ما علمنــا غير خيرٍ   فاقضيا ما تقضيانِ

(١) كذا في نسخة الاسكوريال . وفي الاخري « أهل الجرية »
(٢) القعص : الموت المعجل

لا نبالي ما سمعنا من فلان وفلان
غير ما قالوا اعتقدنا وعلينا شاهدان
وغداً يجمعنا المو قف من قاصٍ ودان
ورضى الله هو المط لوب في كلّ أوان
وأخو الصدق لعمري ذو مقامات حسان
وهوى النفس عناء حائل دون المعاني
وعلى البغضاء يطوى وُدّ اخوان الخوان
بأبي والله أشلا ء على الرمل سوان
بفتى ما كان يالوا ني ولا بالمتواني
يمزج الماء نجيعاً وينادي : علّلاني
ليس بالهيّابة النكس ولا الغمر الهدان
أبيض الوجه تراه والردَى أحمرُ قان
أي سيف لضرابٍ أي رمح لطعان
ذو نجار خزرجيّ الـ ـمنتمى ساميِ المكان
ذكره قد شاع في الأر ض الى أقصى عُمان
لا تراه الدهرَ الاّ حِلفَ سرج أو عنان
عن صهيل الخيل لا يلـ ـهيه تعزاف القيان
إن ألمّت هيعة طا ر اليها غير وان
يصدع الليل بقلب ليس بالقلب الجبان
يالها من نصبةٍ لو لا نحوس في القران
وشباب عاجلوه بالردَى في العنفوان

لم يجاوز من سنيه ال عشرَ الا بثمان
دوّخ الأقطار غزواً من هضاب ومحان
حكّموا فيه الظُبي أسـ رع من لمح العيان
إن يكونوا غادروه في الثرى ملقى الجران
تشربُ الأرضُ دماً منـ ـه تهاداه الغواني
وتحيّيـه بتسليـ ـم ثغورُ الأقحوانـ
فالمعـالي أودعتـه بين سَحر ولَبان
وغوادي المزن يرضعـ ـن ثراه بلبـان
ضاع صرح الثغر لمـا أُغمد السيفُ اليماني
واُعير الاسدُ الور د القميص الأرجواني
عاطياني أكؤسَ الحز ن عليـه عاطيـاني
حمله دون صلاة للثرى ممـا شجاني
أوَ ما كانوا له يد عون أعقاب الأذان
لا تُهينوه فمـا كا ن بأهل للهوان
عجبي والله من إد طان هذا الشنآن
أنا مذ غاب فبالسا لي فؤاداً ما اُراني
وبحسبي دعوات أنا فيها ذو افتنان
بتُّ أهديها اليـه بعـد ترتيل المثـاني
ذاك جهدي إنّ احسا ن أبيه قد غذاني
فأنا الشيعةَ حقّاً بفؤادي ولساني
أفأنسى ذلك العهـ ـد وليس الغدْر شاني

ويقال الرشح موجو   د قديماً في الأواني
وعهود النـاس شتى   من عجاف وسمان
وهي النعمة حقـا   شكرها في كل آن
اتئد يافارس الخيـــل   فغير الله فان
والمعالي تطلب الثا   ر وتأتي بالأماني
وهي الأرحام لا تنســى   ولو بعد زمان
أنت من رحمة غفّا   ر الخطايا في ضمان
وهو يوفي الخصم ان شا   ء وزاناً بوزان
والذي أفشى قبيحاً   حظّه عضٌّ البنان
سلّم الله على من   فيـه ذو جهل لحاني
وجزاه بجهـادٍ   جاء منه ببيـان
ربّنا أنت خبيرٌ   بخفيـاتِ الجنان
ويداك الدهرَ فينا   بالندى مبسوطتان
ومجال العفو رحبٌ   والرضى غضُّ المجاني
فتغمّدْنا برحمى   وقبول وأمان
واجمع الشمل على أو   ضل حال في الجنـان

واقتضت آراء القوم الفائلة استرعاء عقد يتضمن ألفاظا كانت تصدر عن السلطان قادحة في العقد جاءوا بها إفـكاً وزوراً ستُكتبُ شهادتهم ويُسألون.

ومن المعاني البديعة في عكس الأغراض قوله :

عينُ بكّي لميّت عادروه   في ثراه ملقًى وقد عدروه
دفنوه ولم يصلّ عليـه   أحد منهم ولا غسلوه
إنمـا مات حين مات شهيداً   فأقاموا رسماً ولم يقصدوه

﴿ يوسف بن اسماعيل بن فرج بن اسماعيل بن يوسف ﴾

﴿ ابن نصر الانصارى الخزرجي ﴾

﴿ أمير المسلمين بالاندلس ـ رحمة الله عليه ـ يكنى أبا الحجاج ﴾

﴿ حاله وصفته ﴾

بدر الملوك وزين الامراء . كان أبيضَ أزهرَ أيداً مليحَ القد جميل الصفات برّاق الثنايا أنجلَ رَجلَ الشعر أسوده كثّ اللحية وسيماً عذبَ الكلام عظيم الحلاوة يفضل الناس بحسن المرأى وجمال الهيئة كما يفضلهم مقاماً ورتبة وافر العقل كثير الهيبة الى ثقوب الذهن وبُعد الغور والتفطّن للمعاريض والتبريز في كثير من الصنائع العملية مائلا الى الهدنة مزجياً للامور كلفاً بالمباني والأثواب جمّاعة للحلي والذخيرة مستميلاً لمعاصريه من الملوك

تولّى الملك بعد أخيه بوادي السقايين من ظاهر الخضراء يوم الأربعاء الثالث عشر من ذي الحجة عام أربعة وثلاثين وسبعمائة [1] ، وسنّه إذ ذاك خمسة عشر عاماً وثمانية أشهر . واستقلّ بعدُ بالملك واضطلع بالاعباء وتملأ المدنة ما شاء وعظم مرانه لمباشرة الألقاب ومطالعة الرسوم فجاء نسيجَ وحده . ثم عانى شدائد العدوّ فكرُم يوم الوقيعة العظمى بظاهر طريف موقفه ، وحُمد بعدُ في مُنازلة الطاغية عند الجثوم [2] على البلاد صبرُه ، وأجار البحر في شأنها فأفلت من مكيدة العدوّ التى تخطّاها أجله وأوهن حيلها سعدُه

ولما نفذ في الجزيرة القدَر ، وأشفت الأندلس ، سدّد الامور وامتسك [3]

(١) تقدم في ص ٨٤ أن مقتل أخيه في ١٣ ذي الحجة عام ٧٣٣

(٢) في المرا كشية « الطاغية الجثوم » وفي الاخرى « الطاغية عند الجثوم »

(٣) كذا بنسخة الاسكوريال . وفي الاخرى « وأمسك »

الاسلام على يده ، ورواخى مخنق الشدة بسعيه ، فعرفت الملوك رجاحته ، وأثنت على قصده [١] الى حين وفاته على أزكى عمله

﴿ ولده ﴾

كان له من الذكور ثلاثة : محمد ولي الأمر من بعده ، واسماعيل المتوثب عليه ومزعجه عن الأندلس عند التغلب عليه والثورة به من ثقاف جواره ، وقيس شقيق اسماعيل منهما

﴿ وزراء دولته ﴾

تولى وزارته لأول أمره كبير الأكرة ونبيه المشيخة بحضرته ابراهيم بن عبد البر العريض المكسب الثمين العقار ، لحيلة طمع نشأت لمقيمي دولته فيما بيده، سداً لحال على عوز ، طريقه الى الحصرة ، الى ثالث شهر المحرم من العام. وأنف الخاصة والنبهاء رياسته فطلبوا من السلطان اعاضته ، فعدل عنه الى خاصة دولتهم الحاجب أبي النعيم مظنة التسديد ومحط الامات . فاتصل نظره مستبداً عليه في تنفيذ الامور وتقديم الولاة والعمال وجواب المخاطبات و تدبير الرعايا وقود الجيوش. ثم قبض عليه ليلة السبت الثاني والعشرين لرجب لعام أربعين وسبعمائة

وتولى الوزارة بعده ابن عمة أبيه السلطان أبي الوليد القائد أبو الحسن علي بن مول بن يحيى بن مول الامي ، رجل جهوري حازم مؤثر للغلظة لم ينشب أن كف كف استبداده فالتاثت حاله [٢] ولزمته شكاية استفدته [٣]

---

(١) كذا بنسخة الاسكوريال . وفي الاخرى « وأثبت على صبره »
(٢) كذا في نسخة الاسكوريال . وفي المراكشية « بالنايب خاله »
(٣) و المراكشية « استفقدته » وفي الاخرى « استفدوته »

وأقام رسم الوزارة بكاتبه شيخنا أبي الحسن ابن الجياب نسيج وحده الى أُخريات شوال من عام تسعة وأربعين وسبعمائة

وهلك رحمه الله فأجرى ليَ الرسم وعصب بي تلك المثابة ، مضاعف الجراية معزّزاً بولاية القيادة حسبما وقع استيفاؤه في كتاب (نفاضة الجراب) من تأليفنا

﴿ كتّابه ﴾

تولّى كتابته كاتب أخيه وأبيه شيخنا المذكور الى آخر مدته رئيساً للجماعة التى قلّما اجتمع مثلها . وقلّدني كتابة سرّه ، مشاة بمزيد قربه ، مضفرة برسم وزارته

﴿ قضاته ﴾

تولّى له أحكام القضاء قاضي أخيه الصدرُ البقية شيخنا أبو عبد الله محمد ابن يحيى بن بكر الاشعري الى يوم الوقيعة الكبرى بطريف وفُقد في مصافه وتحت لواء جهاده

وولي القضاء الفقيه المفتي البقية أبو عبد الله محمد بن محمد بن عياش من أهل مالقة أياماً ، ثم طلب الاعفاء فأُسعف

وولي مكانه الفقيه أبو جعفر أحمد بن محمد بن برطال من أهل مالقة وابن قاضيها فسدَّد الخطة وأجرى الاحكام الى الرابع من شهر ربيع الآخر عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة

وقدّم للقضاء عوضه الفقيه الشريف أبا القاسم محمد بن احمد بن محمد الحسني السبتيّ المولد والنشأة الطالع على أفق حضرته في أيام أخيه النازع الى ايالتهم

النصرية معدوداً في مفاخر أيامها . ثم عزله

وولّى القضاء بحضرته شيخنا نسيج وحده الرحلة البقية شيخ الصقع وصدر الجلّة أبا البركات بن الحاج

ثم صرفه وأعاد اليها الشيخ الشريف المذكور الى آخر مدته

﴿ رئيس الجند الغربي ﴾

تولّى ذلك لأول الأمر الشيخ أبو ثابت عامر بن عثمان بن إدريس ابن عبد الحقّ ، قريع دهره في النكراء والدهاء المسلَّم له في الرتبة عتاقةً ورأياً وثباتاً . الى أن نكبه وقبض عليه وعلى إخوته يوم السبت التاسع والعشرين من ربيع الاول عام أحد وأربعين وسبعمائة . وأقام شيخاً ورئيساً دائلَهم وابنَ عمهم المتلقّف لكرة عزّهم يحيى بنَ عمر بن رحّو ، ولي ذلك بنفسه ونديمه ومبرز خصاله الى تمام مدّته

﴿ من كان على عهده من الملوك ﴾

وأولا بفاس ـ دار الملك بالمغرب ـ : السلطان المتناهي الجلالة أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق ، وجاز على عهده الى الاندلس إثر صلاة يوم الجمعة تاسع شهر صفر من عام أحد وأربعين وسبعمائة ، بعد أن أوقع بأسطول الروم المستدعَى من أقطارهم وقيعة كبيرة شهيرة استولى فيها من المتاع والسلاح والاجفان على ما بَعُد به العهد واستقرّ بالخضراء في جيش وافر ، وكان جوازه في مائة وأربعين جفناً غزوياً . وبادر الى لقائه في وجوه الاندلسيين وأعيان طبقاتهم بظاهر الجزيرة الخضراء في اليوم الموفي عشرين من الشهر ونازل إثر انقضاء المولد النبوي مدينةَ طريف ونصب عليها المجانيق وأخذ بمخنّقها واستحث

من بها من المحصورين طاغيةَ الروم بصرهم ، فبادر يقود جيشاً يسوق الشجر والمدَر ، وكانت المناجزة يوم الاثنين السابع لجمادى الأولى من العام ، ومحّص الله المسلمين بالوقيعة الشهيرة وأسرع اللحاقَ بالمغرب مفلولا في سبيل الله صابراً محتسباً يروم الكرّة ويرتقب الطائلة ، وكان ما هو معلوم عند اقتحامه حدود الشرق وتوغّله في بلاد إفريقية وجريان حكم الله بالهزيمة ظاهر القيروان . وعُلقت آمال الخلق بولده مستحقّ الملك من بين سائر إخوته وهلك على تفئة التحاقه بأحواز مراكش واعتصامه بجبل هنتاتة ووقوع الهزيمة عليه بولده بأرض تامسنا ليلة الاربعاء السادس والعشرين لربيع الأول عام اثنين وخمسين وسبعمائة اختار الله له ما لديه . واستوسق الأمر لولده أمير المسلمين بالمغرب وما اليه فارس المكنى بأبي عنان المتلقب من ألقاب الخلافة بالمتوكل على الله . فقام بالأمر أحمد قيام ، وأبرّ على من تقدمه بالهمة العالية والمعرفة الفسيحة والخصل الباهر والسعد الظاهر . وجرت بين هذا السلطان وبينه المخاطبات والمراسلات وسفَرَت اليه عنه ، واتصلت أيامه الى آخر مدّته

وبتلمسان : عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن ابن زيان يكنى أبا تاشفين وقد مرّ ذكره ، وهو الذي انقضى ملكُ بني زيان على يده لأول مدّته (١) . تولى الملك عام ثمانية عشر كما تقدّم ، وتهنّاه الى أن تأكدت الوحشة بينه وبين السلطان ملك المغرب فتحرّك لمنازلته وأخذ بمخنقه وحصره سنين ثلاثا واقتحم عليه ملعب البلدة ليلة سبع وعشرين من رمضان عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة . وفي غرّة شوال منها دخل عليه المدينة عنوة ووقف هو وكبير ولده برحبة قصره موقف ثبات واستجماع وصبر الى أن كُوثرا وأُثخنا فعاجلتهما مِيتة العزّ (٢) قبل شدّ الوثاق وإمكان الشمات . واستولى على مُلك

(١) كذا في نسخة الاسكوريال . وبالاخرى « لأول مرة »

(٢) كذا في المراكشية . وفي الاخرى « منية العز »

بني زيان ملكُ المغرب واندرج فيه الى هذا العهد . وفي ذلك قلت من الرجز المسمّى بقطع السلوك في الدول الاسلامية مما يختص بملوك تلمسان ثم بأميرها هذا، عبد الرحمن ما نصه :

وحلّ فيها عابد الرحمن ... فاغترّ بالدنيا وبالزمان
وسار فيها مطلق العنان ... من مظهر سام الى جنان
كم زخرفت عُلياه من بنيان ... آثاره تنبي عن العيان
وصرف العزمَ الى بِجايه ... فعظمت في قومها النكايه
حتى إذا ما مدّة الملك انقضت ... وأوجه الايام عنهم أعرضت
وحقّ حق الدهر فيها ووجبْ ... وكتب الله عليها ما كتب
حثّ اليها السيرَ ملْكُ المغربِ ... يالك من مُمارسٍ مجرّب
فغلب القومَ بغير عهدِ ... بعد حصارٍ دائم وجهد
وأقفرتْ من ملكهم أوطانه ... سبحان من لا ينقضي سلطانه

ثم نشأت لهم بارقة عند ما جرت على السلطان أبي الحسن الهزيمة بالقيروان وانبتّ عن أرضه وصُرفت البيعة في الأقطار الى ولده وارتحل الى طلب منصور ابن أخيه الداعي لنفسه بمدينة فاس، فدخلوا تلمسان وقبضوا على القائم بأمرها وقدّموا على أنفسهم عثمان بن يحيى بن عبد الرحمن بن يغمراسن في الثامن والعشرين لجمادى الآخرة من عام تسعة وأربعين وسبعمائة . واستمرّت أيامه أثناء الفتنة وارتاش وأقام رسم الإمْرة وجدّد ملك قومه واستمرّت أيامه الى أن أوقع بهم السلطان أبو عنان الوقيعة المستأصلة التي خضدت الشوكة واستأصلت الشأفة وتحصّل عثمان في قبضته ، ثم ألحقت النكبةُ به أخاه أبا ثابت فكانت سبيلهما في القتل صبراً عبرة . نفعهما الله(١). وذلك في وسط ربيع الأوّل من عام

(١) أي بثواب ما لقيا من آلام

التاريخ . وتُصبّر الملك للسلطان أبي عنان واندرج فيها لنظره الى أن ثاب بعد وفاته كما يذكر ان شاء الله

وبتونس : الأمير أبو يحيى أبو بكر ابن الأمير أبي زكريا ابن الامير أبي اسحاق ابن الامير أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد ابن أبي حفص ، الى أن هلك وولي ولده عمر ثم ولده أحمد ، ثم عاد الامر الى عمر ثم استولى على الامر السلطان أبو الحسن وقتلت عمرَ بعض حصصه [1] واشتمل ملك المغرب لهذا العهد على ملك إفريقية

وعند صفو الليالي يحدث الكدرُ

ثم ضمّ نشرهم بعد نكبته وخروجه عن وطنهم بابراهيم ابن الأمير أبي بكر عضد أمره وحبر دعوتهم به شيخ جماعتهم وفخر أوليائهم المجتمع على اصالة دهائه وصحة تمييزه واعتدال سيرته أبو محمد بن تافراجين [2]

ومن ملوك النصارى * بقشتالة : ألفونش بن هرانده ابن شانجه بن ألفونش بن هرانده الى عدد جمّ . وكان هذا الطاغية مرهوباً وملكاً مجدوداً هبّت له الريح وعظمت به في المسلمين النكاية وتملّك الخضراء بعد أن أوقع بالمسلمين الوقيعة العظمى بطريف . ثم نازل جبل الفتح وكاد يستولي على الاندلس ، لولا أن الله تداركها بجميل صنعه وخفيّ لطفه لا إله الا هو ، فهلك بمحلته من ظاهره حتف أنفه ليلة عاشوراء من عام أحد وخمسين وسبعمائة . وفي ذلك قلت من كلمة استعجلتها في مخاطبة السلطان رحمه الله تعالى ، وأولها :

ألا حدّثاها فهي أمُّ الغرائب ... وما حاضر في وصفها مثل غائب

ولا تُخليا منها على خَطَر السُرى ... سروج المذاكي أو ظهور النجائب

(1) كذا بنسخة الاسكوريال . وفي المراكشية « خصصه » وعلى الصادين نقطتان بالحمرة « خضضه »

(2) كذا بنسخة الاسكوريال . وفي الاخرى « تافراقين »

ومنها في وصف الكائنة :

أيوسف ان الدهر أصبح واقفاً على بابك المأمول موقف تائب
دعاؤك أمضى من مهندة الظُبي وسعدُك أقضى من سعود الكواكب
سيوفك في أغمادها مطمئنة ولكن سيفَ الله ماضي المضارب
ولله في طيّ الوجود كتائبٌ تدقّ وتخفى عن عيون الكتائب
تُغير على الانفاس في كل ساعة وتكمن حتى في مياه المشارب
أخذن عليه الطرق في دار طارق فما كفّ عنه الجيش من كفّ ناهب
فصار الى مثوى الاهانة ذاهباً وخلَّف عار الغدر ليس بذاهب
فمن قارع في قومه سنّ نادمٍ ومن لاطم في ربعه خدّ نادب
مصائب أشجى وقعُها مهجَ العدى وكم نعم في طيّ تلك المصائب

وبيرجلونة : السلطان بطرُه المتقدّم ذكره في اسم أخيه

﴿ بعضُ الاحداث في أيامه ﴾

وكان الغالبَ على أيامه المدنةُ والصلاح والخير . واتصلت يده بالسلطان أبي الحسن لأوّل هبوب الريح ، فانعقدت السلم خليّةً من رسم الضريبة [1] مدة وهي من نادر الواقعات

وفي أيامه بُنيت المدرسة العجيبة بكر المدارس في حضرته ، فتمت وكملت أوقافها . وبُني الحصن السامي الذروة المنبيء عن القدرة في الجبل المتصل بقصبة مالقة ، فعظم به الفخر وجلّ الذكر

وفي أيامه كانت وقعة البحر بأسطول الروم ، ثم الوقيعة على المسلمين بظاهر طريف حسب ما تقدم به الالماع

(١) كذا بنسخة الاسكوريال . وبالاخرى « من رسم الصريبة »

وعلى عهده تغلب العدوّ على كلمة يعصب جارة حضرته وعلى الجزيرة الخضراء باب الاندلس في قصص طويل تضمنه كتاب (طرفة العصر) وغيره من تأليفنا ثم تهنّأ السلم واتصف جناح الامة الى آخر مدته

﴿ وفاته ﴾

وافاه أمرُ الله جلّ جلاله أتمّ ما كان شباباً واعتدالاً وحسناً وفخامة وعزّاً من حيث لا يحتسب . فهجم عليه يوم عيد الفطر من عام خمسة وخمسين وسبعمائة في الركعة الأخيرة رجل ممرور ورمى نفسه عليه وطعنه بخنجر كان قد اتخذه وأغرى بملاحه وصاح وقطعت الصلاة وسلت السيوف وتُقُبِّض على الممرور واستفهم فتكلم بكلام مخلط واحتمل الى منزله مرفوعاً فوق رءوسنا على الفوت ولم يستقر به الا وقد قضى رحمه الله ، وأخرج ذلك الممرور للناس فمُزّق ثم أُحرق بالنار . ودُفن السلطان رحمه الله عشية اليوم في مقبرة قصره لصق أبيه ، وولي أمره أكبر ولده ، وبولغ في تنويه قبره بما أبرّ على من تقدّمه وثبت عليه من نظم ونثر صادرين عنّا ما نصّه من جانب في الرخام المزخرف بذوب الذهب وسحق اللازورد :

« هذا قبر السلطان الشهيد الذي كرُمت أحسابه وأعراقه ، وحاز الكمال خَلقه وأخلاقه ، وتحدّث بفضله وحلمه شامُ المعمور وعراقُه . صاحبُ الآثار السنية ، والأيام المنية ، والاخلاق الرضية ، والسير المرضية . الامام الأعلى ، والشهاب الاجلى . حُسام الملة ، علم الملوك الجلة . الذي ظهرت عليه عناية ربه ، وصنع الله له في سلمه وفي حربه . قطب الرجاحة والوقار ، وسلالة سيد الانصار . حامي حمى الاسلام برأيه ورايته ، المستولي من ميدان الفخر على غايته ، الذي صحبته عناية الله في بداءة أمره وغايته . أمير المسلمين أبي الحجاج يوسف ابن

السلطان الكبير ، الامام الشهير . أسد دين الله الذي أذعنت الاعداء لقهره ، ووقفت الايامُ والليالي عند نهيه وأمره . رافع ظلال العدل في الافاق ، حامي حمى السنّة بالسمر الطوال والبيض الرقاق ، مخلّد صحف الذكر الخالد والعزّ الباقي الشهيد السعيد المقدس أبي الوليد ابن الهمام الاعلى الطاهر النسب والذات ذي العزّ البعيد الغايات ، والفخر الواضح الآيات . كبير الخلافة النصرية ، وعماد الدولة الغالبية . المقدس المرحوم أبي سعيد فرج بن اسماعيل بن نصر . تغمده الله برحمة من عنده ، وجعله في الجنة جاراً لسعد بن عُبادة جدّه ، وجازى عن الاسلام والمسلمين حميد سعيه وكريم قصده . قام بأمر المسلمين أحمد القيام ، ومهّد لهم بالامن ظهورَ الأيام ، وجلى لهم وجه العناية مشْرقَ القسام ، وبذل فيهم من تواضعه وفضله كلّ واضح الأحكام . الى أن قضى الله بحضور أجله ، على خير عمله . وختم له بالسعادة ، وساق اليه على حين إ كمال شهر الصوم هدية الشهادة . وقبضه ساجداً خاشعاً ، منيباً اليه ضارعاً . مستغفراً لذنبه ، مُطمئناً في الحالة التي أقرب ما يكون العبد فيها من ربه . على يدي شقيّ قيّضه الله تعالى لسعادته ، وجعله سبباً لنفوذ مشيئته وإرادته . خفيَ مكانه لخمول قدره ، وتمّ بسببه أمرُ الله لحقارة أمره ، وتمكّن له عند الاشتغال بعبادة الله ما أضمره من غدره . وذلك في السجدة الأخيرة من صلاة العيد غرة شوال عام خمسة وخمسين وسبعمائة . نفعه الله بالشهادة التى كرم فيها الزمان والمكان ، ووضح منها على قبول الله ورضوانه البيان . وحشره مع سلفه الأنصار الذين عزّ بهم الايمان ، وحصل لهم من النار الأمان . وكانت ولايته الملكَ في غرّة اليوم الرابع عشر لذي حجة من عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة . ومولده في الثامن والعشرين لربيع الآخر عام ثمانية عشر وسبعمائة . فسبحان مَن انفرد بالبقاء المحض ، وحتّم الفناء على أهل الأرض ، ثم يجمعهم الى يوم الجزاء والعرض . لا إله الا هو »

وفي الجهة الأخرى :

يحييك بالريحان والروح من قبرِ … رضى الله عمّن حلّ فيك مدى الدهر
الى أن يقوم الناسُ تعنو وجوهُهم … الى باعث الأموات في موقف الحشر
ولستَ بقبر إنما أنت روضة … منعّمة الريحان عاطرة النشر
ولو أنني أنصفتك الحقّ لم أقل … سوى : يا كمام الزهر أو صدف الدرّ
ويا مَلحد التقوى ويامدفن الهدى … ويا مسقط العليا ويا مغرب البدر
لقد حطّ فيك الرحلَ أيُ خليفة … أصيل المعالي غرّةٍ في بني نصر
لقد حلّ فيكَ العزّ والمجد والعلى … وبدرُ الدجى والمستجار من الذُعر
ومَن كأبي الحجّاج حامي حمى الهدى … ومَن كأبي الحجّاج ماحي دجى الكفر
إمام الهدى غيث الندى دافع العدى … بعيد المدى في حومة المجد والفخر
سلالة سعد الخزرج بن عُبادة … وحسبك من بيت رفيع ومن قدر
إذا ذكر الاعضاء والحلم والتقى … وحدّثتَ عن علياه حدّثْ عن البحر
تخوّنه طرْفُ الزمان وهل ترى … بقاء لحيّ أو دواماً على أمر
هو الدهرُ ذو وجهين يوم وليلة … ومَن كان ذا وجهين يعتب في غدر
تولّى شهيداً ساجداً في صلاته … أصيل التقى رطب اللسان من الذكر
وقد عرف الشهرُ المبارك حقّ ما … أفاض من النعمى ووفّى من البرّ
وباكر عيدَ الفطر والحكمُ مُبرَمٌ … وليس سوى كأس الشهادة من فطر
أُتيح له وهو العظيمُ مهابةً … وقدراً حقيرُ الذات والخلق والقدر
شقيٌّ أتته من لدنه سعادة … ومنكر قوم جاء بالحادث النكر
وكم من عظيم قد أُصيبَ بخاملٍ … وأسباب حكم الله جلّت عن الحصر
فهذا عليّ قد قضى بابن ملجم … وأوقع وحشي بحمزة ذي الفخر

نُعدُّ الرماح المشرفية والقنا ويطرق أمر الله من حيث لا ندري
ومن كان بالدنيا الدنية واثقاً على حالة يوماً فقد باء بالخسر
فيا مالك الملك الذي ليس ينقضي ويامَن اليه الحكم في النهي والأمر
تغمَّد بستر العفو منك ذنوبنا فلسنا نرجّي غير سترك من ستر
فما عندك اللهمّ خيرٌ ثوابُه وأبقى ودنيا المرء خدعة مغترّ

محمد بن يوسف بن اسماعيل بن فرج بن اسماعيل

﴿ ابن نصر ﴾

﴿ أمير المسلمين بالاندلس بعد أبيه وأخيه ﴾

﴿ حاله ﴾

هذا السلطان مشتمل على خلال وأوصاف قلَّ أن تجتمع في سواه : من حسن الصورة ، واعتدال الخلق ، والعراقة في الخير ، وسلامة الصدر ، وصحة العقد ، وشمول الطهارة

ولي الملك يوم وفاة أبيه ضحوة عيد الفطر من عام خمسة وخمسين وسبعمائة اختياراً لمزية السنّ ومظنّة الحصافة ، وهو يافع قريب عهد بمحال المراهقة ، متحلٍّ بوقار وسكينة ، آوٍ الى خُلق سَبط وعفة بالغة ، وسافرٌ عن وسامة يكتنفها جلباب حياء وحشمة ، حسن الضريبة والسجيّة ، حلو اللفظ قليل المشقّة ، كثير الاناة ، ظاهر الشفقة ، سريع الدمعة في مجالي الرقة ، عطوف مخفوض الجناح ، جواد بالخلع الأثيرة ، جزل العطية بعيد من القسوة والغلظة مائل الى الخير بفضل السجية

افتتحت أيامه بالسلم والمدنة ، وظللت برواق الأمن والعصمة . ورفع لأولها كل كبير عن الرعية وأخذ نفسه بالركض والثقافة في الميادين خارج مدينته والتردد في شوارع حضرته ، غير متصنع في ركبة ولا متغال في قرابة بزه . فأنست العامة بقربه ، وسكنت الخاصة الى طيب نفسه ، وحمد الناس فضل عفافه وإكبابه على شأنه وكلفه بما يعنيه من أمره

ولما طرقه الحادث الجلل من الثورة به والوثوب بسلطانه واحتجازه ليلاً عن داره وكبس متبوّأة ، تخلص رابط الجأش من ملتف الهول وأسرى تحت سواد ليلته في أفذاذ صبية من خدمه ، فلحق بوادي آش ، وكان أملك لأمله على قرب الجوار من عدوه وقلة ماله ، فامتسك ونازلته المحلات ، فأبلى من معه في الدفاع ، وتناصف من عدوه ، الى أن استدعاه السلطان ملك المغرب فخرج عن وادي آش ثاني عيد النحر من العام المذكور ولحق به حالاً أعلى منازل الترفيع معلل المطلب بالمواعد الى أن جاز البحر مرتب الألقاب مزاح العلل مسخرة في اجازته أساطيل العدوتين . واجتمع بملك الروم المعطي عن نفسه صفقة الاعانة . والتف عليه الجيش المريني والجالية من مماليكه ورجاله ، واهتزت الاندلس لقدومه . ولم يكد العزم يمضي والأمر يقضى حتى تعرف خبر هلاك السلطان معينه ورائش جناحه ومتولي جبره أمير المسلمين أبي سالم رحمه الله ، فسقط في اليد وانحل ما أبرم من العزم ، وتفرق المنسوب الى الايالة المرينية من الجيش وانحاز الى خارج رُندَة . فلما استقر الأمر وثاب الملك مكّن من السكنى بها موصول اليد بسلطان قشتالة مطلاً بوعده ممنّىً بنصره . ثم اقتضت الأحوال استدعاء السلطان أبي زيان محمد ابن الأمير أبي عبد الرحمن يعقوب ابن السلطان الكبير أبي الحسن من إيالة ملك الروم وترددت رغبات الوزير القائم بدعوته الصارف اليه بيعة عمه ومختاره من بين قرابته . فكان

السلطان أبو عبد الله المذكور العمدةَ في خلاص أمره وتسنّي صرفه والضامن لما طولب به من شرطه ، الى أن اتصل بدار الملك المحصورة بابن عم أبيه وأجفل عنها المحاصر ، فاستمرّ استقرار السلطان بمدينة رندة مقتضياً مواعيد التزم السلطان له قضاءها وتضمن العقد مع ملك قشتالة منابذة المتغلب على الاندلس وإعانته على استرجاع حقه ، فكان العمل على ذلك

وفي أوائل شهر جمادى الاولى من عام ثلاثة وستين تحرّك الطاغية بجيش عظيم من الروم لانجاز وعده بلغ استعداده الى قود ألف عجلة ومئين تحمل أنواع العدد المصرفة في منازلة البلاد . واستدعى السلطانَ من رندة فرحل اليه بمن معه واجتمع به بحصن قشرةَ [١] وقصد أرض المسلمين وصدم منها حصن آثر [٢] المطلّ عليها إطلال الجارح المحلّق ، ودخلت سرعانُ جيشه ما وراء قورته [٣] العظمى ، واشتركت مع أهله محلّ السكنى ، ولم تبق الا القصبة المديعة الجَذْوَى . فلما رأى تحصلَ مَن به في قبضته وتصبُّرَه في مِلكته أنِفَ الملك بمقتضى دينه وعفّته وسأله الافراج عنه وقرّر عن نفسه أنه لا يُباشر شيئاً من إضرار المسلمين والمالأة عليهم ولو جرّ ذلك ملك الأرض ، وطلب الانصراف . فشقّ ذلك على السلطان صاحب قشتالة واعتذر بما يتقيه في الافراج عما انفرد بالتغلّب عليه من نكير قومه وأكد له العهدَ بنصره وإعانته على طلب حقّه ، وأطاعَ داعيَ المروءة والدين ، ورضي باطّراح هواه في جنب سوء القالة وادّراع المذمّة ، وانصرف الى رُندة في أوائل الشهر المذكور في الثامن منه ، وهو الآن بها الى عهد تأليف هذا الكتاب قد أقام رسماً وارتاش

(١) كذا بنسخة الاسكوريال . وبالاخرى « بلشرة »
(٢) كذا بنسخة الاسكوريال . وبالاخرى « أشر »
(٣) كذا بنسخة الاسكوريال . وبالاخرى « قورية »

وسُمُوٌّ باياته ما يرجع الى تلك المدينة من الحصون والأحواز والله يتولاه ويحمله على ما يحمد عقباه بمنه

﴿ ولده ﴾

وُلد له الى هذا العهد ولدٌ ذكر اسمه يوسف على اسم أبيه

﴿ وزراؤه وحجّابه ﴾

قام ببابه برسم الحجابة القائد المعتمد بالتجلّة المخصوص بالقدح المعلّى من المزية ، مفزع الرأي وعقدة السلطان وبقية رجال الكمال من مشيخة ولاء بيتهم أبو النعيم رضوان

وحدّد لي الرسوم الوزارية من الوقوف بين يديه في المجالس العامّة وإيصال الرقاع وفصل الامر والتنفيذ للحكم والترديد بينه وبين الناس والعرض والانشاء والمواكلة والمجالسة في صف الموازاة مطلق الجراية مجدّد الولايات معزّز الخطة بالقيادة بعملة أرحبة وولاية الرؤساء من قرابته مسوّغ الاقطاع الجمّ من مستخلصه تولّى الله جزاءه وكافأ فضله

﴿ كتّابه ﴾

أجريتُ له رسم العرض والانشاء من جملة ماناطه بي من الوظائف . ثم استخدَمتُ في الكتابة والعرض أُخريات أيامه كاتبَ الدولة الاندلسية الفقيه الكاتب أبا محمد عبد الحق بن أبي القاسم بن عطيّة ، فحمدتُ منابه لحمل الكلّ والصبر على عبء الخدمة

﴿ قضاته ﴾

جدّد أحكام القضاء والخطابة لقاضي أبيه الشيخ الشريف الاستاذ نسيج

وحده وفريد دهره إغراقاً في الوقار وحسن السمت ، وتبحراً في علوم اللسان ، شيخنا أبي القاسم محمد بن احمد بن محمد الحسني الجانح الى الإيالة النصرية من مدينة سبتة الى أخريات شعبان من عام ستين وسبعمائة وتوفى رحمه الله

وولي خطة القضاء بعده شيخنا نسيج وحده البعيد المدى في ميدان الاصالة الامامة والاصول الصالحة والسذاجة والشيم المكرمة أبي البركات محمد بن محمد ابن الحاج البلفيقي ، وهو الآن رهن الحياة ومستقضى المتصير اليه الملك بالاندلس

﴿ شيخ المجاهدين من المغاربة ﴾

أقرّ على الغزاة شيخهم على عهد أبيه أبا زكرياء يحيى بن عمر بن رحّو بن عبد الله بن عبد الحق مطمح الطرف ومرمى الاختيار ولباب القوم حزماً ودهاء وتجربة وادراكا نسّابة القبيل وأصمعي لغتهم وكسرى سياستهم . وزاده خصوصية بملازمة مجلس العرض وملتقى الرسل الواردة وإجالة قداح المشورة

﴿ الملوك على عهده ﴾

بالمغرب :

السلطان الشهير أمير المسلمين أبو عنان فارس ابن أمير المسلمين أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق ، البعيد شأو السعادة ، المصمى أغراض السداد ، مُطعَم الظفر ومخوّل الموهبة ومتخيّر الله من أفنان تلك الشجرة المباركة ، المستولى على الآماد البعيدة الكمالية أبهةً ورواء وخطّا وبلاغة وحفظاً وادراكا وفهماً وإقداماً وشجاعة ، الى الرابع والعشرين من ذي حجة عام تسعة وخمسين وسبعمائة

وولي بعده ولدُه السعيد أبو بكر ، وقام بتدبيره وزيرُه ، وكان في النبل والادراك آية لو أن الليالي أمهلته . ووجّه الجيش الى تلمسان وفيه أعلام قبيله ووجوه خاصته ، فأجمعوا على تقديم منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد ابن يعقوب بن عبد الحق ، رجل خير قد اقتحم سنّ الكهولة ، فبايعوه وأقبلوا الى مدينة فاس فتحصّن الوزير واستمسك بالولد واستبصر في المدافعة وصابر الحصار وتلاحق من الأندلس السلطان أبو سالم ابراهيم بن السلطان أمير المسلمين أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب ، أجازه سلطان قشتالة لما فرّ اليه ونزل بأحواز طنجة بعد أن عرض نفسه على السواحل فوجد الغبطة بمنصور بن سليمان قد حصلت ، والتفّ عليه قبيل غمارة ودخلت في أمره أصيلا وطنجة وسبتة ، وتوجهت اليه الحصص ، وضُويق مخنّقه لولا أن الله فصل الخطة بفرار القوم عن منصور بن سليمان ضربة لازب وتركه أوحشَ من وَتِدٍ في قاع . فمنهم مَن قصد البلد المحصور مستأمنا ومنهم من صرف وجهه الى الامير أبي سالم ، وفرّ منصور بن سليمان وولده حائراً بنفسه الى جبال بادس ، وتلاحق السلطان أبو سالم بدار الملك وقد تأكد بينه وبين صاحب الأمر بها الوزير الحسن [1] بن عمر ما مهّد ذلك ، فدخلها بعد خروج الوليد ابن أخيه اليه ثم الوزير يوم الخميس الخامس عشر من شعبان عام ستين وسبعمائة . واستوسق له الأمر واستحكمت الطاعة الى اليوم العشرين من ذي قعدة ، وأُتيَ اليه بمنصور بن سليمان وولده فقتلها صبراً ، نفعهما الله . وقيم عليه بدعوة أخيه المختبل وفرّ الناس عن مصافّه وذهب لوجهه حائراً بنفسه ، واتُّبع فجيء به الى قريب من البلد وقتل وأُتي برأسه وأخذت على الناس البيعة لأخيه أبي عمر تاشفين المقدّم إساره وفسادُ عقله ببلاد الروم الموجه الى أبيه بعد سنين المستقرّ متجافيٍّ عنه بسبب محنته ، وأجاز

(١) كذا بالمراكشية وفي الاخرى « الاحسن »

البحر من الأندلس طالباً للأمر الأميرُ أبو محمد عبد الحليم ابن السلطان أبي علي عمر ابن السلطان أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق ، واستقرّ بتلمسان وتحرّك بمن ألماه بها من أرباب الحسائف [١] والمتخلفة من حماة الشرف قبل استيلاء الملوك من أهل الشرق على ما يجاوز حدودهم منها وبمن نزع اليه خاطباً ومستقدماً ، ونازل المدينة البيضاء دارَ الملك في سادس محرم من عام ثلاثة وستين وسبعمائة ، وبرز اليه أهل المدينة في قوّة وعُدّة ، فانهزم بعد مصابرة وإبلاء واستقرّ بمدينة تازا [٢] ملتفاً عليه الكثير من قبيله ، ثم تغلّب على مدينة مكناسة وشدّها بأخيه وابن أخيه . وقد كان محصوروه طيّروا الى بلد قشتالة مستدعين الأمير أبا زيان المستقرّ بها ، فوصل بعد مراوضة كبيرة يوم الاثنين ثاني وعشرين لصفر من العام المذكور ، وتصيّر له الأمير وصُرف أبو عمر الى حاله الأولى من التزام البيت موكّلاً به ، وبرز الجيش الى مدافعة مَن بمكناسة لنظر الوزير مدير هذه الرحى ، ومُديل هذه الدول ، المصنوع له في ذلك ، المهتدي الى أقصى النبل فيه ، عمر ابن الوزير عبد الله بن علي البياني [٣] فكان له الظهور ، وحرت على مَن كان بمكناسة الهزيمة ، وانصرف على إثر ذلك الأمير الراتب [٤] برباط تازا الى مدينة سجلماسة بلد أبيه لكونها مما دخل في طاعته وتبادرت الى تقلّد دعوته ، وهو الآن بها الى تاريخ الفراغ من هذا التقييد ، وهو غرّة جمادى الثانية من عام ثلاثة وستين وسبعمائة .

وبتلمسان : الامير أبو حمو موسى بن يوسف بن يحيى بن عبد الرحمن بن

(١) الحسائف : جمع حسيفه وهي الصفيه . وبنسخة الاسكوريال «الخسائف» بالمعجمة
(٢) كذا بالمراكشية . وبالاخرى « تيزا »
(٣) كذا بالمراكشية . وفي الاخري « الياباني »
(٤) كذا بنسخة الاسكوريال . وبالاخرى « الواثب »

يغمراسن بن زيان المستولي عليها عند انصراف بني مرين عنهـا صحبة أميرهم منصور بن سليمان المبايَع بها ، وهو الآن بها موصوف برجاحة وسداد

وبافريقية : ابراهيم ابن الامير أبي يحيى أبي بكر بن أبي حفص بن أبي اسحاق ابن الأمير أبي زكرياء جارٍ تدبير ملكه بيُمن نقية شيخ الدولة أبي محمد بن تافراجين تحت مضايقة زعموا من عرب الوطن

وبقشتالة : بترُه ابن السلطان الهونش بن هرانده بن شانجه بن الهونش ابن هرانده الى أربعين . ولي الملك على أُخريات أيام أبيه في محرَّم عام أحد وخمسين وسبعمائة . وعقد معه السلم على بلاد المسلمين بعد وفاته . وغمرت الرومَ فتنةٌ شغلته الى هذا العهد ، دفع الله عن المسلمين معرّته ، وأجراهم على خير ما عهدوه من فضله

وببرجلونة: السلطان بترُه بن الهونش بن جايمش بن الهونش بن بترُه . وهذا الطاغية ترجع الى ملكه الجزائر البحرية ومملكته عريضة ، ونازل على عهده جزيرة سردانية وانقطع بها حتى هلك عليها الكثير من أمته . وأوقع بالجنويّين وقيعة كبيرة بحرية

﴿ بعض الاحداث في أيامه ﴾

كانت أيامه هادئة قليلة الحوادث منسدلة الامن ، فلم يقع فيها كبيرٌ مُسْتَطَر إلا ما كان من لحاق عيسى بن الحسن بن أبي منديل العسكري بجبل الفتح ، وهو رئيسه المخصوصَ به من لدن فتحه واظهاره الخلاف والامتناع سادس ذي قعدة من عام ستة وخمسين وسبعمائة . فضاقت الصدور وساءت الظنون لتوقّع الفاقرة بانسداد باب الصريخ وانبتات النصرة إلا أن الله تدارك بفضله ، فثار به في الخامس والعشرين من الشهر أهل الجبل ، وبدا لهم في الأمر لقبض يده

عن العطية وسوء السيرة ، وصاح به صائح البوار فخذله أشياعه واعتصم بالبرج الأعظم وأحيط به فألقى باليد ، وقُبض عليه وعلى ولده وبودر به الى سبتة فأغرى بهما السلطان أبو عنان حليف الصنع سوء القتلة وشنيع المثلة ، وقانا الله مصارع السوء

﴿ الحادثة عليه [1] ﴾

كان عند تصيّر الامر اليه قد ألزم أخاه اسماعيل قصراً من قصور أبيه بجوار قصره مرفَّها عليه متمَّمة وظائفه ، وأسكن معه أمّه وأخواته منها ، وقد استأثرت يوم وفاة والده بمال جمّ من خزائنه الكائنة في بيتها ، فوجدت السبيل الى السعي لولدها ، فجعلت تواصل زيارة ابنتها التى عقد لها الوالد مع ابن ابن عمه الرئيس أبي عبد الله ابن الرئيس أبي الوليد ابن الرئيس أبي عبد الله المبايع له بأندرش ابن الرئيس أبي سعيد جدّهم الذي نجمهم جرثومته . وشمّر الصهر المذكور وهو ماهو من الاقدام ومداخلة ذؤبان الرجال عن ساعد جدّه ، وراش وبرى واستعان بمن أسفّته الدولة وهفت به الاطماع ، فتألف منهم زُهاء مائة قصدوا جهة من جهات القلعة متسنّمين شفيّ صعب المرتقى واتخذوا آلة تدرك ذروته لقعود بَنيّة كانت به عن التمام ، وكبسوا حَرَسِيًّا بأعلاه بما اقتضى صُماته فاستوروا به ونزلوا الى القلعة سحور الليلة الثامنة والعشرين من شهر رمضان عام ستين وسبعمائة ، فاستظهروا بالمشاعل والصُراخ [2] وعالجوا دار الحاجب ففضوا أغلاقها ودخلوها فقتلوه بين أهله وولده وانتهبوا ما اشتملت عليه داره .

(١) نقل هذه الحادثة عن (اللمحة البدرية) المقرى في نفح الطيب (٣ : ٤٤ ـ ٥٥ الطبعة المصرية سنة ١٣٠٢) وقد نبهني الى ذلك صديقي العلامه الشيخ عبد العزيز الميمني الراجكوتي

(٢) كذا بنسخة الاسكوريال ونفح الطيب . وفي المراكشية « والصراخ »

وأسرعت طائفة مع الرئيس الصهر فاستخرجت الأمير المعتقل اسماعيل وأركبته وقرعت الطبول ونودي بدعوته . وقد كان أخوه السلطان متحولاً بولده الى سكنى الجنة المنسوبة للعريف لصق داره وهي المثل المضروب في الظل الممدود والماء المسكوب والنسيم العليل ، يفصل بينها وبين معقل الملك السور المنيع والخندق المصنوع ؛ فما راعه الا النداء والعجيج وأصوات الطبول ؛ فهب الى الدخول للقلعة فألفاها قد أخذت دونه شعابها كلها وقاباها ، وقذفته الحراب ورشقته السهام فرجع أدراجه وسدده الله تعالى في محل الحيرة ودس له عرق الفحول من قومه فامتطى صهوة فرس كان مربطاً عنده وسار لوجهه فأعيا المتبع ، وصبح مدينة وادي آش ولم يشعر حافظ قصبتها إلا به وقد تولج عليه بابها فالتف به أهلها وأعطوه صفقتهم بالذب عنه فكان أملك بها ، وتجهزت الحشود الى منازلته وقد جدد أخوه المتغلب على ملكه عقد السلم مع طاغية قشتالة لاحتياجه الى سلم المسلمين لجراء فتنة بينه وبين البرجلونيين من أمته . واغتبط به أهل المدينة فدبوا عنه ورضوا بهلاك نعمتهم دونه . واستمرت الحال الى يوم عيد الفطر من عام التاريخ . ووصله رسول ملك المغرب مستنزلا عنها ومستدعياً الى حضرته لما عجز عن امساكها ، وراسل ملك الروم فلم يجد عنده من معول ؛ فانصرف ثاني يوم عيد النحر المذكور [1] وتبعه الجم الوافر من أهل المدينة خيلاً ورَجْلاً الى مربلة من ساحل اجازته . وكان وصوله الى مدينة فاس ـ مُصحَباً من البر وكرامة القدوم بما لا مزيد عليه ـ في السادس من شهر محرم فاتح عام أحد وستين وسبعمائة . وركب السلطان الى تلقيه ونزل اليه عند ماسلم عليه وبالغ في الحفاية به . وكنتُ قد لحقتُ به مُفلتاً من شرك النكبة التي استأصلت المال وأوهمت سوء المآل بشفاعة السلطان أبي سالم قدس الله روحه

(١) المذكور آنفاً هو عيد الفطر . وقد اتفقت النسختان ونفح الطيب على هذا الاختلاف

فقمتُ بين يديه في الحفل المشهود يومئذ وانشدتُه :

سَلا هل لديها من مخبّرة ذِكرُ ... وهل أعشب الوادي ونمَّ به الزهر
وهل باكر الوسميُّ دارا على اللوى ... عفت آيُها ، إلاّ التوهُمُ والذكرُ
بلادي اني عاطيت مشمولة الهوى ... بأكنافها والعيشُ فَينانُ مخضرُّ
وجوّي الذي ربّى جناحيَ وكرُه ... فها أناذا مالي جناح ولا وكرُ
نَبَتْ بيَ لا عن جفوة ومَلالةٍ ... ولا نسخَ الوصل المنيَّ بها هجرُ
ولكنها الدنيا قليلٌ متاعُها ... ولذّاتها دأباً تزور وتزْوَرُّ
فمن لي بقرب العهد منها ودونها ... مدى طال حتى يومُه عندنا شهر
ولله عينا مَن رآنا وللأسى ... ضرامٌ له في كل جانحة جمر
وقد بدّدت دُرَّ الدموع يدُ النوى ... وللشوق أشجان يضيق لها الصدر
بكينا على النهر الشروب عشية ... فعاد أجاجاً بعدَنا ذلك النهر
أقول لاظعاني وقد غالها السُرى ... وآنسها الحادي وأوحشها الزجر
رويدكِ بعد العسر يُسران ابشري ... بإنجاز وعد الله قد ذهب العسر
ولله فينا سرُّ غيب ، وربما ... أتى النفعُ من حال أريدَ بها الضرُّ
وإن تخُنِ الأيامُ لم تخنِ النهى ... وان يخذل الاقوام لم يخذل الصبر
وإن عركت مني الخطوبُ مجرِّباً ... تقاباً تساوى عنده الحلوُ والمر
فقد عجمت عُوداً صليباً على الرّدَى ... وعزماً كما تمضى المهنَّدة البتر
اذا أنت بالبيضاء قرّرت منزلي ... فلا اللحمُ حِلٌّ ما حييت ولا الظهرُ
زجرنا بإبراهيم بُرءَ همومنا ... فلما رأينا وجهه صدق الزجرُ
بمنتخب من آل يعقوب كلما ... دجا الخطب لم يكذب لعزمته فجر
تناقلت الركبانُ طيبَ حديثه ... فلما رأته صدّق الخبر الخبر
ندًى لو حواها البحر لذّ مَذاقُه ... ولم يتعقب مدّه أبداً جَزْرُ

وبأس غدا يرتاع من خوفه الردى | وترفل في أثوابه الفتكة البكر
أطاعته حتى العُصْمُ في قنن الربا | وهشَّت الى تأميله الانجم الزهر
قصدناك ياخير الملوك على النوى | لتنصفنا مما جنى عبدُك الدهر
كففنا بك الأيامَ عن عُلوائها | وقد رابنا منها التعسّف والكبر
وعُذْنا بذاك المجد فانصرم الرَّدى | ولُذْنا بذاك العزم فانهزم الذعر
ولما أتينا البحر يرهب موجه | ذكرنا نداك الغمر فاحتُقر البحر
خلافتك العظمى ومَن لم يَدِنْ بها | فإيمانه لغوٌ وعرفانه نُكر
ووصفك (١) يهدي المدح قصد ثوابه | إذا ضلَّ في أوصاف مَن دونك الشعر
دعتك قلوب المؤمنين وأخلصت | وقد طاب منها السرُّ لله والجهر
ومدَّت الى اللهُ الاكفُّ ضراعة | فقال لهن الله : قد قضيَ الامر
وألبسها النُّعمى ببيعتك التي | لها الطائر الميمون والمَحتِدُ الحرُّ
فأصبح ثغرُ الثغر يبسم ضاحكاً | وقد كان مما نابه ليس يفترُّ
وأمَّنتَ بالسلم البلادَ وأهلها | فلاظَبْيةٌ تَعرَى ولاروْعة تعرو
وقد كان مولانا أبوك مصرِّحاً | بأنك في أبنائه الولد البَرُّ
وكنتَ خليقاً بالامارة بعده (٢) | على الفور ، لكن كل شيء له قدر
وأوحشت (٣) من دار الخلافة هالة | أقامت زماناً لايلوح بها البدر
فردَّ عليك اللهُ حقَّك إذ قضى | بأن تشمل النعمى ، وينسدل الستر
وقاد اليك الملك رفقاً بخلقه | وقد عدموا ركن الامامة واضطروا

---

(١) كذا في نسخة الاسكوريال ونفح الطيب . والذي في المراكشية « ووصلك »
(٢) كذا بنسختي الاسكوريال ومراكش . وفي نفح الطيب «وكنت حقيقاً بالخلافة بعده»
(٣) كذا بنسخة الاسكوريال ونفح الطيب ، وفي المراكشية « وواحشت »

وزادك بالتمحيص عزاً ورفعة ... وأجراً ، ولولا السبكُ ما عُرف التبر
وأنت الذي تُدعى إذا دهم الردى ... وأنت الذي تُرجى إذا أخلف القطر
وأنت اذا جار الزمانُ محكَّمٌ ... لك القبض والابرام والنهي والامر
وهذا ابن نصر قد أتى وجناحه ... مهيضٌ ومن علياك يلتمس الجبر
غريبٌ يرجّي منك ما أنت أهله ... فان كنت تبغي الفخر قد جاءك الفخر
ففزْ يا أمير المؤمنين (١) ببيعة ... موثّقة قد حلّ عروتها الغدر
ومثلك من يرعى الدخيلَ ، ومن دعا ... بيعا لمرين جاءه العزّ والنصر
وخذ يا إمامَ الحقّ بالحق ثأره ... ففي ضمن ما تأتي به العزّ والاجر
وأنت لها يا ناصر الحق فلتقم ... بحق ، فما زيدٌ يرجّى ولا عمرو
فان قيل مالٌ مالكَ الدثرُ وافرٌ ... وان قيل جيشٌ عندك العسكر المجر
يكف بك العادي ويحيا بك الهدى ... ويبني بك الاسلام ما هدّ الكفر
أعدْه الى أوطانه عنك راضياً ... وطوّقه نعماك التي مالها حصر
وعاجل قلوب الناس فيه بجبرها ... فقد صدعها عنه التغلب والقهر
وهم يرقبون الفعل منك وصفقة ... تحاولها يمناك ما بعدها خسر
مرامك سهل لاتئودُك كلفةٌ ... سوى عَرَضٍ ما ان له في العلى خطر
وما العمر الا زينة مستعارة ... تُردّ ، ولكن الثناء هو العمر
ومن باع ما يفنى بباق مخلدٍ ... فقد أنجح المسعى وقد ربح التجر
ومن دون ما تبغيه يا ملك العلى ... جياد المذاكي والمحجلة الغُر
ورادٌ وشقرٌ واضحاتٌ شياتها ... فأجسامها تبرٌ وأرجلها در
وشهبٌ اذا ما ضمّرت يومَ غارة ... مطهمة غارت بها الانجم الزهر
وأسد رجال من مرين مخيفةٌ ... عمائمها بيض وآسالها سمر

(١) كذا بالنسختين . وفي نفح الطيب « يا أمير المسلمين »

عليها من الماذي كل مفاضة تدافع في أعطافها اللجج الخضر
هم القوم ان هبّوا لكشف ملمّة فلا الملتقى صعبٌ ولا المرتقى وعر
إذا سُئلوا أعطوا وان نوزعوا سطوا وان وعدوا وفوا وان عاهدوا بروا
وان مُدحوا اهتزوا ارتياحا كأنهم نشاوى تمشت في معاطفهم خمر
وان سمعوا العوراء فرّوا بأنفس حرام على همّاتها في الوغى الفرُّ
وتبسم ما بين الوشيج ثغورهم وما بين قضب الدوح يبتسم الزهر
أمولايَ غاضتْ فكرتي وتبلّدت طباعي فلا طبعٌ يعين ولا فكرُ
ولولا حنانٌ منك داركتَني به وأحييتني لم تبقَ عين ولا اثر
فأوجدتَ مني فائتاً أيَّ فائت وأنشرت ميتاً ضم اشلاءه القبر
بدأتَ بفضل لم أكن لعظيمه بأهل فجلّ اللطف وانفرج الحصر
وطوّقتَني النعمى المضاعفةَ التي يقلُّ عليها منيَ الحمدُ والشكر
وأنتَ بتتميم الصنائع كافل إلى أن يعودَ العزُّ والجاه والوفر
جزاك الذي سنّى مقامك عصمةً يُفكُّ بها عانٍ وينعشُ مضطر
اذا نحن أثنينا عليك بمدحةٍ فهيهات يُحصى الرمل أو يحصر القطرِ
ولكننا نأتي بما نستطيعه ومَن بذل المجهود حقٌّ له العذر

فلا تسأل عن امتعاض وانتفاض ، وسداد أنحاء في التأثر لما وأغراض . والله غالب على أمره

ومن أراد استقصاء جزئيات هذه الحوادث فعليه بكتابنا (نفاضة الجراب ، في علالة الاغتراب)

وفي صبيحة يوم السبت السابع عشر من شهر شوال عام اثنين وستين وسبعمائة كان انصرافه الى الأندلس

وقد ألحّ صاحب قشتالة في طلبه وترجح الرأي على نصره ، فقعد السلطان بقبّة العرض من جنة المصارة ، وبرز الناس وقد أخذهم البريح ، واستحضرت الجنود والطبول والآلة ، وألبس خلعة الملك . وقيدت له مراكبه فاستقلّ وقد التف عليه كل من انجلى عن الأندلس من لدن الكائنة في جملة كثيفة ، وتلا من رنة الناس واجهاشهم وعلو أصواتهم بالدعاء ما قدم به العهد ، إذ كان مظنة ذلك سكونا وعفافا وقربا قد ظلله الله برواق الرحمة وعطف عليه وشائج المحبة ، الى كونه مظلوم العهد منتزع الحق . فتبعته الخواطر وحميت له الأنفاس وانصرف لوجهته . وهو الآن مستقل برُندة وجهاتها ، ومتعللّ بألقاب ومقتنع برسم

قد قام له برسم الوزارة الشيخ القائد أبو الحسن علي بن يوسف الحضرمي ابن كماشة المستفيض عن تصرفاته عدم النجح أمراً مطّرداً

وبكتابته الفقيه أبو الحسن على بن عبد الله بن الحسن الجذامي المالقي ، وأبو عبد الله بن زَمْرَك ، وقد استفاض عنه من الحزم والتدرب والتيقّظ للأمور والمعرفة بوجوه المصالح مالا ينكر أن يستفيده عقل التجربة في مثل تلك الذات الكريمة . كان الله له وليا بفضله

﴿ اسماعيل بن يوسف بن اسماعيل بن فرج بن اسماعيل بن نصر ﴾

﴿ أخوه المتصير اليه الملك بالأندلس بعده ﴾

﴿ حاله ﴾

كان فتى وسيماً بديناً على حداثة سنه ، ويرحم الله العتبي وقد سأله الحجاج عن سمنه وهو مجنوب اليه من سجنه فقال : « القيد والرتعة ، ومن يكُ ضيفَ

الامير يسمن » ، حسنَ الصورة والقدّ ، خشناً مضعوفا لمكان الاعتقال ومجاورة النساء ، منحطاً في درك اللذة ، قاصر الهمة ، على حياء ودماثة . قام بأمره ابن عم أبيه ، وأقعده الأريكة ، وضم له الرجال . فلما استوثق الأمر اعتز عن لنظره واستجلب لهم الفوائد وسوغهم المناهب ، واستغلظ ماشاء ، وانحط له في رتبة الخدمة والنصيحة وأسرَّ الحسْوَ في الارتغاء ، ولم يوفق الله هذا الأمير لمراعاته ، وايجاد ماتستبقى به حشمته ، وساء ما بينهما من غير حذر يؤخذ ولا تقية تستشعر ، فانكدر سريعاً نجمه وسطا به سطوة شنعاء حسبما يتقرر في وفاته ، فمضى لسبيله . رحمه الله

﴿ وزراؤه ﴾

قدَّم للوزارة عشيَّ يوم ولايته محمدَ بن ابراهيم بن أبي الفتح الفهري ، القائد المخصوص بالحُظْوَة ، النبيه النشاة ، الكثير الترف ، المتصف من السكون والخيرية قبل الوزارة بما جرى الرسم منه بخلافه بعدها ، المترامي الى أقصى آماد البأو والاغترار . فاتصلت أيامه الى آخر أيام أميره القصيرة ، وأعمل التدبير عليه مع مبيره ـ زعموا ـ من غير جريرة أسفه بها ولا نعمة نقصه اياها فلما تم عليه التدبير قام المتولّى بعده برسم الوزارة أياما من شهر رمضان واتهمه واحتجَّ عليه بكتب ـ في مخاطبة سلطان المغرب ـ تبرأ منها فلم يقبل عذرَه ولا أقال عثرته ، وتقبض عليه وعلى ابن عمه وثلاثة من ولدهما فبُعثوا على ظهرٍ الى ساحل المنكّب فأُغرقوا به جميعا ، فلم تبك عليهم السماء والأرض . وقانا الله سوء المصرع وحملنا تحت العافية

﴿ كتابه ﴾

استقلّ بالكتابة عنه الفقيه أبو محمد عبد الحق بن أبي القاسم بن عطية المحاربي مخلّفي على الكتابة العليا من رسوم الخدمة المنوطة بي إلى أخريات أيامه

﴿ قضاته ﴾

تولّى له خطة القضاء الفقيه أبو بكر[1] أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن جُزَيّ ، من وجوه الحضرة ونجباء أحداث فضلائها ، ثم صرفه عن الخطة وقدّم لها أبا القاسم سلمون بن علي بن سلمون من شيوخ قضاة الأندلس وحلفاء السداد إلى آخر مدّته

﴿ شيخ الغزاة على عهده ﴾

شيخ الغزاة على عهد أخيه ، انقاد له وحطب في حبله وأقصر عن نصرة أخيه . واستمر على ولايته بقية أيامه

﴿ الحوادث في أيامه ﴾

لم يكن في أيامه ما يسطَّر لضيق مجالها عن ذلك

﴿ وفاته ﴾

وثار به ابن عمه وقد أوحشه وتنكر له . ومع ذلك فهو مقر له بجواره ، غاصة قلعته من فرسانه ورجاله . فكبسه ليلة السابع والعشرين من شهر شعبان عام أحد وستين وسبعمائة ، وقد استركب فرسانه واستنجد رجاله وداخل وزيره وحافِظ بابه وأمين سدّته يعرف بالمَوْرُوريّ [2] واهتبل غرته وهو متبذّل في

(١) في المراكشية « أبو جعفر »
(٢) كذا بالمراكشية ، وبالاخرى « بالموروي »

بعض قصوره ، فأحاط به ، ولجأ أمامه الى برج عظيم مطلّ على البلد واستجار بالناس ومعه لمة من الاحداث فانحاش الى ما تحت ذلك الصرح خاق لاحيلة لهم الى نصره . ثم ألقى باليد ونزل طامعاً في العود الى الثقاف الذى لزمه ، فتقرّعه ابن عمه ووقفه على ذنوبه إليه وكفران سعيه . ثم أمر بثقافه فذهب الرجال به الى طبق أرباب الجرائم بأزاء قصره حافياً حاسراً . ولما استقرّ بالأرى حيث الطبق أشير بقتله ، فتعاورته السيوف لحينه ، وبودر بحز رأسه وطرحه الى الناس الذين خفّوا للتمويه بنصره ، فاحتمله بعضهم بعلاق ضفيرةِ شعرٍ جثلٍ كان يرسلها ما بين كتفيه وألحق به ساعتئذ أخوه الصبي الصغير (قيس) وطرحت جثتاهما بالعراء مغطاةً بأسمال ، الى أن ووريا ، فكان في أمرهما عبرة

أمير المسلمين محمد ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر

المستأنف الولاية ، المقال العثرة ، الطاهر الكرامة

عاد الى ملكه من غير مظاهرة ولا حيلة ، وقد خلص الى الله قصده وظهر من ملك قشتالة انتباذه ، وضاق عن الصبر مسلكه ، فصرف وجهه الى مالقة مستميتاً ، ففتح الله له حصون طريقه اليها من الغربية وصاح بأهلها الى طاعته فتغلب على من بقصبتيها [1] واتصل خبر تملكه إياها بعدوّه المتوثب على دار ملكه ففرّ الى ملك الروم ، وأسرع هو الى اللحاق بالحضرة فدخل حمراءها في منتصف اليوم العشرين لجمادى الآخرة ، وانفذ اليه ملكُ الروم رأسَ عدوّه عن قرب من ذلك مع رءوس ممدّيه في الغيّ ، فاستوسق له الأمر وانسدل به

(١) في المراكشية « بقصبتها » على الافراد

الستر وثار عليه في الحضرة بممالأة الأشرار من جنده عليّ بن علي بن أحمد بن نصر ـ الشيخ الزمن ـ فاظفره الله به . وهو الآن أمير المسلمين بالأندلس جامع الشمل وعمدة الدين وخريج الحنكة ومدْرَه التجربة ، قد ظهر أمره وبان استقلاله وسطعت سعادته وجرى على التوفيق تدبيره . أعانه الله وأعزه بمنه

﴿ وزراؤه ﴾

اقتضى حزمه وحذره اهمالَ هذا الرسم ، ومباشرة أمره بنفسه ، فاستقامت حاله والحمد لله

﴿ كاتبه ﴾

الفقيه الطرف في الادراك ، اللعوب بأطراف الكلام المشقق ، فارس النظم ثم النثر وينبوع الحلاوة ، أبو عبد الله بن زَمْرَك

﴿ قضاته ﴾

قضى له الفقيه الوقور الخيّر أبو بكر أحمد بن محمد بن جزيّ ، ثم الفقيه الفاضل قريع الأصالة وخدن السداد أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسن الجذامي

﴿ شيخ الغزاة على عهده ﴾

يحيى بن عمر بن رَحّو الى الثالث عشر من رمضان عام أربعة وستين ، وتقبض عليه وعلى ابنه فأركبه الأدهم الحرون وأسكنه الطبق بقصبة المنكّب ، فاستلبه جاهاً عريضاً وملكاً كبيراً وأحاق به مكروهاً مبيرا

﴿ الملوك على عهده ﴾

بالمغرب وتلمسان وافريقية وقشتلية [١] ورغون : الملوك على عهد سواه من قبله آنفاً

﴿ الاحداث في أيامه ﴾

تخليد الأثر الكبير ببابه ، المتخذ لقعود الناس وحديث العافية المعاد بسعادة لصبته الى حين الفراغ من التأليف ، وهو آخر محرم فاتح عام خمسة وستين وتسعمائة

وهذا الكتاب عيون ونكت ومن أراد الاستقصاء فعليه بكتاب (نفاضة الجراب) من تأليفنا . والله يحسن فى الآخرة والأولى فاليه الرجعى لا إله إلا هو

﴿ تمت اللمحة البدرية ﴾

(١) كذا بنسخة الاسكوريال وفي الاخرى « قشتيلة » وتقدم بلفظ « قشتالة »

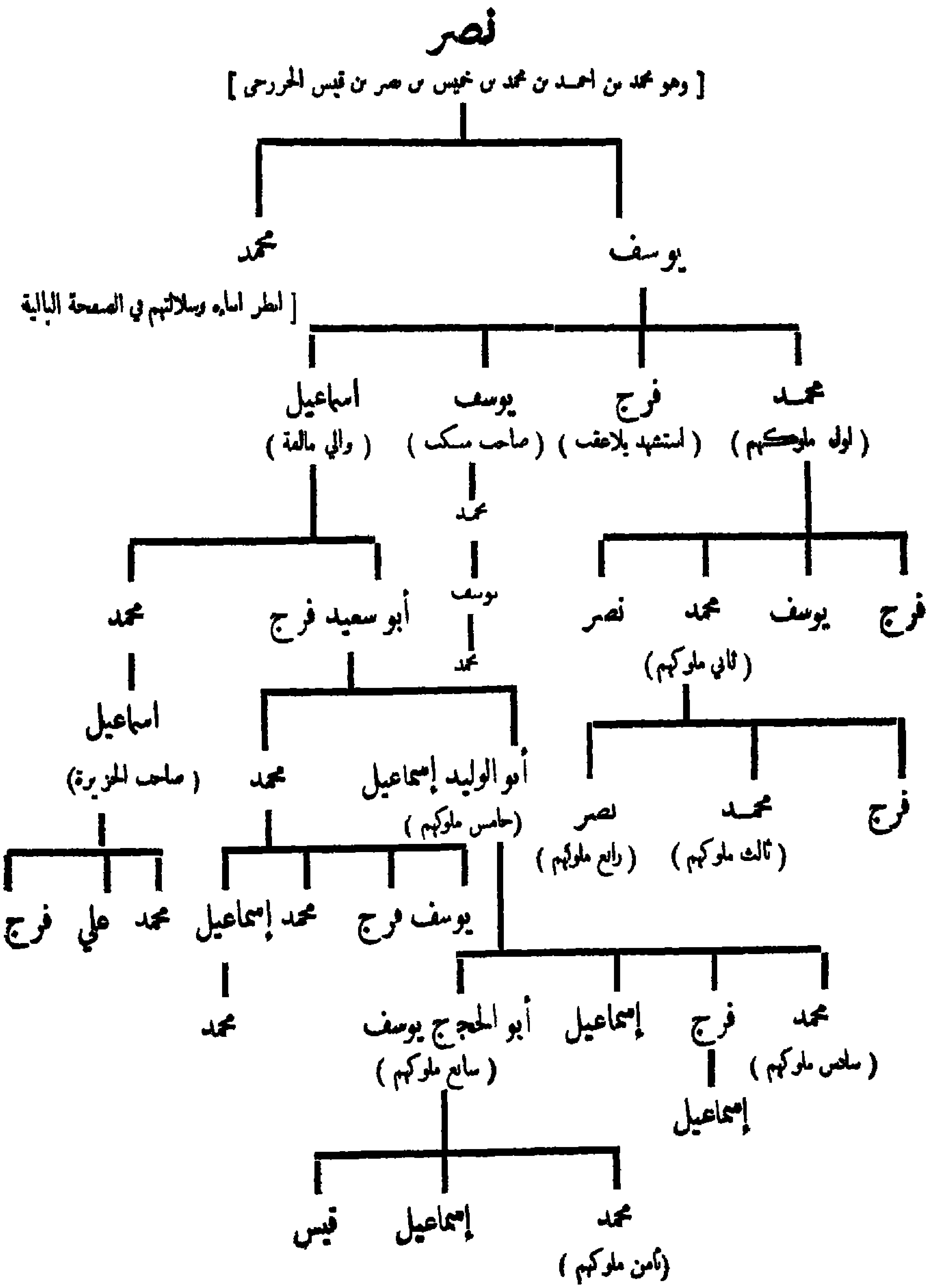


باب مسجد الحمراء ـ من آثار دولة بني نصر

فهارس

بنو نصر

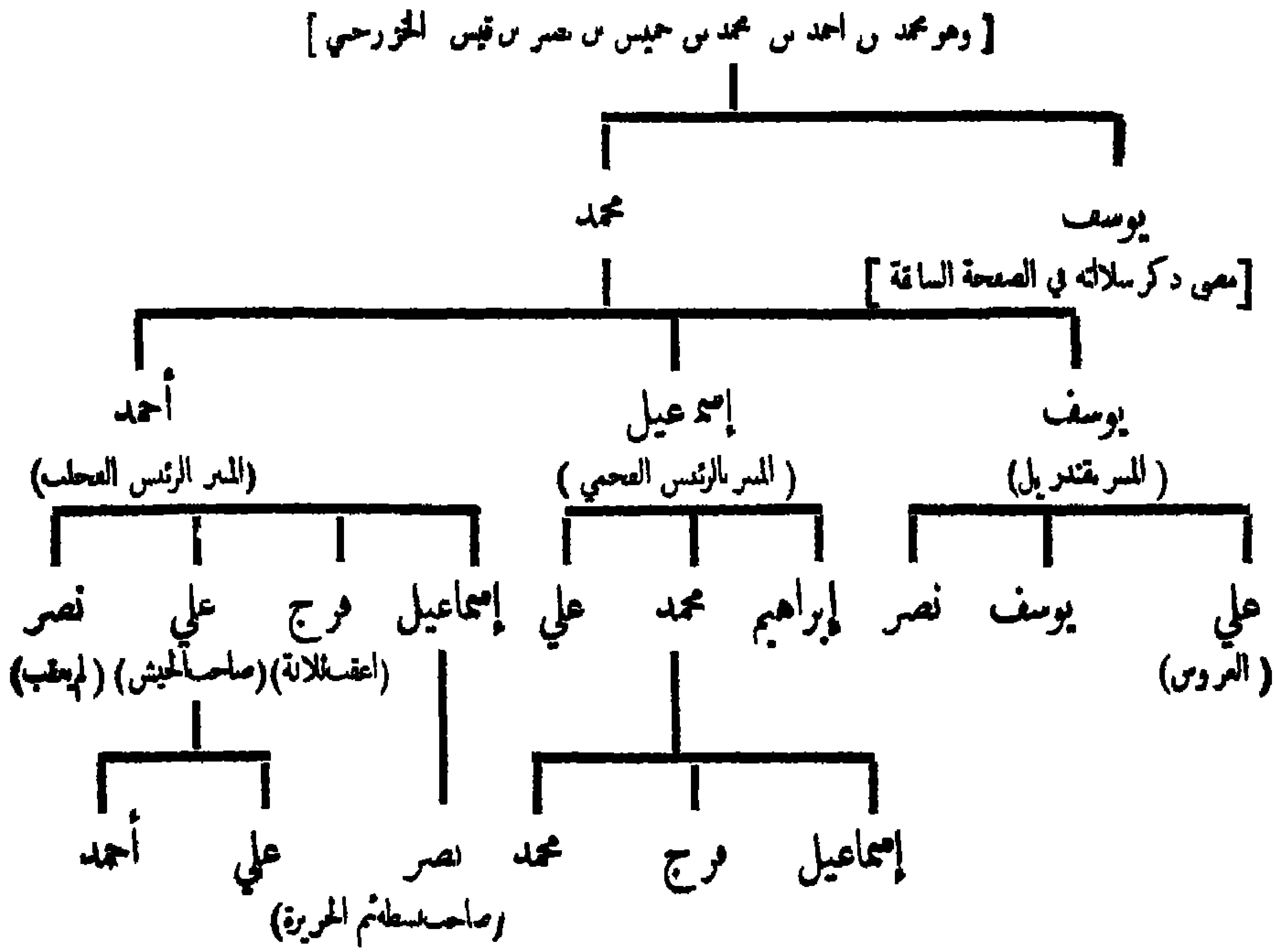
شجرة تبين أسماء المشهورين من هذه السلالة



بنو نصر

بقية الشجرة التى تبين أسماء المشهورين من هذه السلالة

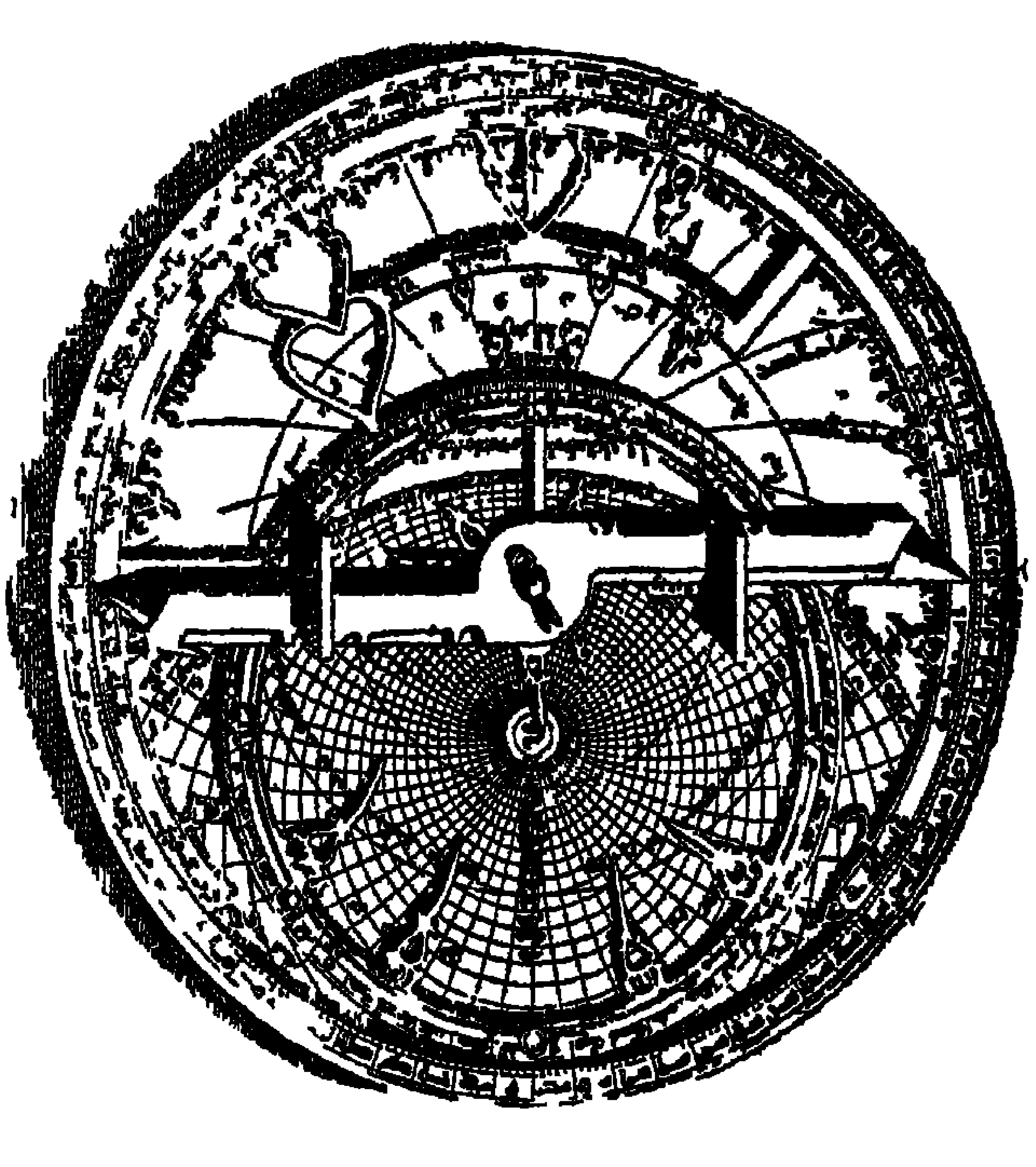
نصر





فهرس

لأبواب الكتاب



فهرس الاعلام التاريخية

ا

د - ذ - ر - ز

س - ش



باب قصر عربي في اشبيليه

فهرس الاعلام الجغرافية

الواردة في

« اللمحة البدرية في الدولة النصرية »

فهرس أسماء الكتب

المذكورة في

﴿ اللمحة البدرية في الدولة النصرية ـ وهوامشها ﴾

انتهى تم